كيف تواجه الابتلاء



السيد حسين نجيب محمد

دار الهادي


بسم الله الرحمن الرحيم


مكتبة نرجس PDF
www.narjes-library.blogspot.com

كيف تواجه الإبتلاء

السيد حسين نجيب محمد



للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى
١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م



دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع
هاتف: ٥٥٠٤٨٧/٠١ - ٨٩٦٣٢٩/٠٣ - فاكس: ٥٤١١٩٩ - ص.ب: ٢٨٦/٢٥ غبيري - بيروت - لبنان
E-Mail: daralhadi@daralhadi.com - URL: http: //www. daralhadi.com

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

(سورة البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧)

عن أبي بصير، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إنَّ الحُرَّ حرٌّ على جميع أحواله، إنَّ نابته نائبة صبر لها، وإن تداكّت عليه المصائب لم تكسره، وإن أُسر وقُهر واستُبدل باليسر عسراً، كما كان يوسف الصدِّيق الأمين لم يضرر حرّيّته أن أُستعبد وقُهر وأُسر، ولم يضرره ظلمة الجبِّ ووحشته وما ناله، أن منَّ الله عليه فجعل الجبَّار العاتي له عبداً بعد إذ كان مالكاً، فأرسله ورحم به أُمَّة، وكذلك الصبر، يُعقب خيراً، فاصبروا ووطِّنوا أنفسكم على الصبر توجروا».

(الأربعون حديثاً)

المقدمة

الابتلاء سنة إلٰهية:

الابتلاء سُنَّة إلٰهيَّة عامَّة في حياة النَّاس دون استثناء، فهو يبدأ مع الإنسان منذ ولادته مروراً بطفولته وشبابه وشيخوخته حَتَّى وفاته، وكما يقول القرآن الكريم: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾ (سورة البلد: الآية: ٤)، أي في تعب ومشقة وألم.

وعن الإمام الحسن عليه السلام: «لا أعلم خليقة يكابد من الأمر ما يكابد الإنسان، يكابد مضايق الدُّنيا وشدائد الآخرة»[1].

فلا يخلو إنسان إلاَّ وهو يُبتلىٰ بالمرض في نفسه وفيمن يُحبّه كالزوجة والأولاد، أو يُبتلى بالفقر، أو الخسارة في المال والتجارة، أو موت الأحبّة، أو سوء خلق الزوج أو الجار... إلى غير ذلك من مظاهر الابتلاءات الدنيوية الَّتي نراها في كُلِّ يوم، وكما يقول الإمام علي عليه السلام: «إضرب بطرفك حيث شئت من النَّاس، فهل تبصر إلاَّ فقيراً يكابد فقراً، أو غنياً بدَّل نعمة الله كفراً، أو بخيلاً اتخذ البخل بحقِّ الله وفراً»[2].

---

(١) الاختيار في تفسير القرآن بالآثار: ج٣، ص٩١.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ١٢٧.

وهل تبصر إلاً رجلاً يسعى من الصباح إلى المساء من أجل قوت عياله أو مريضاً يعاني يتردد بين المستشفى والصيدلية، أو زائراً لقبر حبيبه وعزيزه، أو فقيراً كان غنيّاً، أو ضعيفاً كان قويّاً، أو ذليلاً كان عزيزاً وهكذا...

نعم، هذه طبيعة الحياة وكما يقول الشاعر:

طُبعت على كدر وأنت تريدها صفواً من الأكدار والأقذار

ومكلف الأيّام ضدَّ طباعها متطلب من الماء جذوة نار

الابتلاء حكمة الخلق:

يُصرِّح القرآن الكريم بأنَّ الهدف من خلق الإنسان، والسَّمٰوات والأرض وما عليها هو ابتلاء الإنسان.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (سورة هود: الآية: ٧).

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾ (سورة الكهف: الآية: ٧).

وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ (سورة الملك: الآية: ٢).

فإذا كان الابتلاء سنّة الحياة الدُّنيا، وحكمة الخلق فلنا أن نتساءل:

١ ـ ما هو البلاء؟

٢ ـ ما هي أنواع البلاء؟

٣ ـ مَنْ يُبتلى؟

٤ ـ ما هي فلسفة الابتلاء؟

٥ ـ كيف نواجه الابتلاء؟

وللإجابة على ذلك كان هذا الكتاب المؤلف من ستة فصول وخاتمة.



معنى الابتلاء

الابتلاء هو «الاختبار والامتحان في الحسن والقبح»[1].

ويُقال للاختبار والامتحان «بلاءٌ» لأنَّهُ يُظهر حقيقة الإنسان، فإنَّكَ عندما تجهل حقيقة الطرف الآخر، هل هو مؤمن أو كافر؟ أو هل يصلح للأمر الفلاني أو لا؟ فإنَّكَ تختبره وتمتحنه ليظهر لك حاله، وقد تعرف حاله، إلاَّ أنَّكَ تريد أن تُظهِر له أو للنَّاس واقع أمره فتختبره.

قال الله تعالىٰ: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ أي تُظهر كل نفس ما عملت في الدُّنيا.

والله تعالىٰ عندما يمتحن عباده لا لجهلٍ منه بحالهم وإنَّما لإتمام الحُجَّة عليهم وإظهار حالهم للنَّاس ولأنفسهم.

يقول الشهيد مطهري: «الامتحان عدَّة أقسام:

---

(١) الأربعون حديثاً: ص٢٢٧.

١ ـ **امتحان شخصي**: أن تمتحن شريكك لتتعرف على نواياه، وهذا لا يُنسب إلى الله تعالىٰ.

٢ ـ **امتحان اختباري**: إنَّكَ تعرف حقيقة الآخر ولكنَّك إذا حكمت عليه قد يرفض حكمك فتظهر له واقعة بامتحانه مثال التلميذ والأستاذ.

٣ ـ **الامتحان التربوي**: وهو غربلة الإنسان للوصول به إلى الكمال»[1].

ويُقال للابتلاء «**التمحيص**» وذلك لأنَّ التمحيص يُطهِّر الإنسان من الذُّنوب والعيوب بعد الاختبار والامتحان، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ (سورة آل عمران: الآية: ١٤١).

كما يُقال له «**الفتنة**» لأنَّ الفتنة هي تطهير للإنسان بالابتلاء، قال الله تعالىٰ: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ (سورة الأنبياء: الآية: ٣٥).

ويُقال له «**المحنة**» ـ من الامتحان ـ، قال الله تعالىٰ: ﴿ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾ فصارت المحنة والمنحة بلاءً، فالمحنة مقتضية للصبر والمنحة مقتضية للشكر، والقيام بحقوق الصبر أيسر من القيام بحقوق الشكر، فصارت المحنة أعظم البلاءين.

إذا عرفنا أنَّ الابتلاء هو كشف الحقيقة الكامنة في ذات الإنسان عن طريق الامتحان والاختبار والتمحيص والفتنة، فلنتعرَّف على الأُمور الَّتي يُمتحن بها الإنسان في حياته.

---

(١) تفسير سورة الملك من مجلة «المنطلق»: عدد ٥٠.

ما هي أنواع البلاء؟

المتبادر إلى الذهن أنَّ البلاء يقع في الأُمور الَّتي تكرهها النَّفس الإنسانية كالمرض والفقر، إلاَّ أنَّ القرآن الكريم يذكر أنَّ البلاء كما يتحقق بالأُمور المكروهة كذلك يتحقق بالأُمور المحبوبة.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (سورة الأنبياء: الآية: ٣٥)، ويقول الله تعالىٰ على لسان نبيه سليمان عليه السلام ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ (سورة النمل: الآية: ٤٠)، إلاَّ أنَّ إطلاق لفظ البلاء ينصرف إلى الابتلاء بالشَّر، وأما إذا كان بالخير فإنَّهُ يُقيَّد فيُقال: بلاءً حسناً.

وفيما يلي نستعرض مصاديق الابتلاء المذكورة في القرآن الكريم:

الابتلاء بالعطايا الإلٰهيَّة

إنَّ الله تعالىٰ بعدله وحكمته جعل الابتلاء بما أعطاه للإنسان

من طاقات وقابليات ولم يبتله بشيء يفوق طاقته البشرية، وفي ذلك يقول الله تعالىٰ: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ﴾ (سورة المائدة: الآية: ٤٨).

فالعالِم يُختبر بما أعطاه الله من علم، هل يعمل بعلمه؟ وهل يكتمه عن أهله؟ وهل يتواضع أم يتكبر؟ إلى غير ذلك.

وصاحب المال يُختبر بما آتاه الله من مال، هل ينفقه في سبيل الله؟ وهل يستخدمه في معصية الله؟ وهل يتكبر على النَّاس؟ إلى غير ذلك.

وصاحب القُوَّة يُختبر في قوّته، وصاحب الجاه في جاهه.

وصاحب الصوت الجميل يُختبر في صوته، هل يستخدمه في سبيل الله تعالىٰ كتلاوة القرآن ومجالس العزاء أم يستخدمه للغناء والطرب والفساد.

وصاحبة الوجه الجميل تُختبر في جمالها، هل تستر شعرها ومحاسنها أم لا؟

وهكذا يُختبر الإنسان من خلال الطاقات الَّتي أعطاه الله إيَّاه ومِمَّا ذُكر في النُّصوص الدِّينيَّة:

قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ۝٢٨﴾ (سورة الأنفال: الآية: ٢٨).

فيما ناجىٰ الله به موسى أنَّه قال: «يا موسى، أكرم السائل ببذل يسير، أو بردٍّ جميل، إنَّهُ يأتيك منْ ليس بإنسٍ ولا جان، ملائكة من ملائكة الرَّحمٰن، يبلونك فيما خولتك، ويسألونك مِمَّا نولتك، فانظر كيف أنت صانع يابن عمران»[1].

---

(١) دار السَّلام: ج٤، ص١٩٢.

وعن رسول الله ﷺ أنَّهُ قال: «خلتان كثير من النَّاس فيه مفتون الصحة والفراغ»[1].

وعنه ﷺ: «ثلاث فاتنات: الشعر الحسن، والوجه الحسن، والصوت الحسن»[2].

ومن هنا فلا بُدَّ للإنسان الواعي أن يتعامل مع النعِم بحذر فإنَّها من أعظم الابتلاءات الدنيويَّة.

قال الله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة الزمر: الآية: ٤٩).

وعن الإمام علي عليه السلام: «أيُّها النَّاس، ليركم الله من النعمة وجلين، كما يراكم من النقمة فرقين، أنَّهُ من وُسِّع عليه ـ في ذات يده ـ فلم ير ذلك استدراجاً فقد آمن مخوفاً، ومن ضُيِّق عليه ـ في ذات يده ـ فلم ير ذلك اختباراً فقد ضيَّع مأمولاً»[3].

وعنه عليه السلام: «ما ابتلى الله أحداً بمثل الإملاء له»[4].

والقرآن الكريم يعتبر أنَّ زمن الرخاء هو من الابتلاء، قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾ (سورة الجن: الآيتان: ١٦ ـ ١٧).

---

(١) الكافي: ج٨، ص١٥٢.
(٢) ميزان الحكمة.
(٣) نهج البلاغة: قصار الحكم، ٣٥٨.
(٤) ميزان الحكمة.

وفي الحديث: «لأنا لفتنة السرَّاء أخوف عليكم من فتنة الضرَّاء، إنَّكُم ابتليتم بفتنة الضرَّاء فصبرتم وأنَّ الدُّنيا حلوة خضرة»[1].

الابتلاء بالمال:

الابتلاء بالمال من أكثر الأُمور الَّتي يتعرض لها الإنسان، فقد يُبتلىٰ الإنسان بالحاجة إلى المال، أو بخسارته بعد الربح، أو بإنفاقه، أو بإخراج ما فُرض عليه من زكاة وخمس وهكذا.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (سورة الأنفال: الآية: ٢٨).

وعن الإمام جعفر الصَّادق عليه السلام: «ما بلى العباد بشيء أشد عليهم من إخراج الدراهم»[2].

عن أبي جعفر عليه السلام فيما ناجى الله به موسى عليه السلام: «يا موسى، أكرم السائل ببذل يسير، أو برٍّ جميل، إنَّهُ يأتيك من ليس بإنسٍ ولا جان، ملائكة من ملائكة الرَّحمٰن، يبلونك فيما خولتك، ويسألونك مِمَّا نولتك، فانظر كيف أنت صانع يابن عمران»[3].

عن أبي بصير قال: «سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله مؤمن فقير شديد الحاجة من أهل الصفة وكان لازماً لرسول الله صلى الله عليه وآله عند مواقيت الصَّلاة كُلِّها لا يفقده في شيء

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) ميزان الحكمة.

(٣) دار السَّلام: ج٤، ص١٩٢.

منها، وكان رسول الله ﷺ يرق له وينظر إلى حاجته وغربته، فيقول: يا سعد لو قد جاءني شيء لأغنيتك.

قال عليه السلام: فأبطأ ذلك على رسول الله ﷺ فاشتدَّ غمّ رسول الله بسعد، فعلم الله سبحانه ما دخل على رسول الله ﷺ من غمِّه بسعد، فأهبط عليه جبرائيل عليه السلام ومعه درهمان فقال له: يا محمَّد إنَّ الله قد علم ما قد دخلك من الغمّ بسعد، أفتحب أن تغنيه؟ فقال له: نعم، فقال له: فهاك هذين الدرهمين فأعطهما إيَّاه، ومره أن يتجر بهما.

فأخذهما رسول الله ﷺ ثمَّ خرج إلى صلاة الظهر وسعد قائم على باب حجرات رسول الله ﷺ ينتظره، فلمَّا رآه رسول الله ﷺ قال: يا سعد أتحسن التجارة؟ فقال له سعد: والله ما أصبحت أملك ما أتجر به، فأعطاه النَّبيّ ﷺ الدرهمين وقال له: أتجر بهما وانصرف لرزق الله، فأخذهما سعد ومضى مع رسول الله ﷺ حتَّى صلَّىٰ معه الظهر والعصر، فقال له رسول الله ﷺ: قم فأطلب الرِّزق، فقد كنت بحالك مغتماً يا سعد.

فاقبل سعد لا يشتري بالدرهم إلاَّ باعه بدرهمين، ولا يشتري شيئاً بدرهمين إلاَّ باعه بأربعة دراهم وأقبلت الدُّنيا على سعد فكثر متاعه وماله وعظمت تجارته، فاتخذ على باب المسجد موضعاً جلس فيه وجمع تجارته إليه، وكان رسول الله ﷺ إذا أقام بلال الصَّلاة يخرج وسعد مشغول بالدُّنيا لم يتطهر ولم يتهيأ كما كان يفعل قبل أن يتشاغل بالدُّنيا فكان النَّبيّ ﷺ يقول: يا سعد شغلتك الدُّنيا على الصَّلاة، فيقول: ما أصنع، أضيع مالي، هذا رجل قد بعته فأريد أن أستوفي منه، وهذا رجل قد اشتريت منه فأريد أن أوفيه.

فدخل رسول الله ﷺ من أمر سعد غم أشد من غمه بفقره فهبط عليه جبرائيل عليه السلام فقال: يا محمَّد إنَّ الله قد علم بغمك بسعد، فأيما أحبَّ إليك حاله الأولى أو حاله هذه؟ فقال له النَّبي ﷺ: يا جبرائيل بل حاله الأولى قد أذهبت دُنياه بآخرته.

فقال له جبرائيل: إنَّ حب الدُّنيا والأموال فتنة ومشغلة عن الآخرة، قال جبرائيل: قل لسعد يرد عليك الدرهمين الَّذين دفعتهما إليه، فإنَّ أمره سيصير إلى الحالة الَّتي كان عليها أولاً.

فخرج النَّبي ﷺ فمرّ بسعد فقال له: يا سعد أما تريد أن ترد عليَّ الدرهمين الَّذين أعطيتكهما؟ فقال سعد: بلىٰ ومأتين، فقال له النَّبي ﷺ: لست أريد منك يا سعد إلاَّ درهمين، فأعطاه سعد درهمين، وأدبرت الدُّنيا على سعد حَتَّى ذهب ما كان جمع، وعاد إلى حاله الَّتي كان عليها»[1].

الابتلاء بالمصائب:

كالأمراض، والفقر، والهجرة، والسجن، وموت الأحباب، وفي ذلك يقول الله تعالىٰ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (سورة البقرة: الآية: ١٥٥).

والخوف توقع المكروه كالخوف من السجن والفقر وغير ذلك، ونقص المال أعم من الأوراق النقدية، أو الأعيان الخارجية، كالبيوت والسيارات وما أشبه.

(١) مهذَّب الأحكام: ج١٦، ص١٥.

ونقص الأنفس هو كل ما يتأثر الإنسان بفقده وورود النقص عليه ـ سواء أكان من النقص في قوى النَّفس أو عروض الموت عليها ـ فيشمل النَّفس والأقارب والأصدقاء.

والثمرات جمع ثمرة وهي وإن كانت داخلة في الأموال غالباً، لكن الله تعالى أفردها لتشمل ما ينبت في الأرض بالطبيعة مِمَّا لا مالك لها فعلاً، وينتفع بها الإنسان، كالمرعىٰ، وجملة كثيرة من النباتات الَّتي لها منافع هامة للإنسان، وتكون غذاءً للحيوان.

ويصح أن يُراد بالثمرات مضافاً إلى ما ذكرناه «ثمرات القلوب» وهي الأولاد كما يُعبَّر عنهم كثيراً، وفي الحديث عن النبي ﷺ: «إذا مات ولد العبد قال الله تعالىٰ للملائكة: أقبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم، فيقول: أقبضتم ثمرة قلبه؟ فيقولون: نعم، فيقول الله تعالىٰ: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع، فيقول الله تعالىٰ: ابنوا لعبدي بيتاً في الجَنَّة وسموه بيت الحمد»[1].

وفي الرواية أنَّهُ مرض أمير المؤمنين عليه السلام فعاده قوم فقالوا له: كيف أصبحت يا أمير المؤمنين؟ فقال عليه السلام: أصبحت بشرٍّ، فقالوا له: سبحان الله هذا كلام مثلك؟ فقال عليه السلام: يقول الله عزَّ وجلَّ: «ونبلوكم بالشَّرِّ والخير فتنة» فالخير الصحة والغنى، والشَّرِّ المرض والفقر ابتلاءً واختباراً»[2].

الابتلاء بالتكليف الشرعي

التكاليف الشرعية من أهم الأُمور الَّتي يُبتلىٰ بها الإنسان،

---

(١) مواهب الرَّحمٰن: ج٢، ص١٦٩.

(٢) ميزان الحكمة: مادة «الابتلاء».

وذلك لأنه تقع في طريق سير وسلوك إلى الله تعالى، والتي هي هدف الخلق، وإنه من يسعد إلا برفع النفس بذلك التكليف الشرعي سواء أكان متعلقاً في مجال العقيدة أو السلوك العملي.

أما الابتلاء في مجال العقيدة فكالابتلاء بالإيمان بالمشيئة أو الإمامة أو النبوة أو الحساب في القبر.

وقد ورد في الروايات الصحيحة المتضافرة أنّ الأئمة عليهم السلام هم الباب امتحان الله الناس.

وعن الإمام علي عليه السلام: «فإنّ الله سبحانه يختبر عباده المستكبرين في أنفسهم بأوليائه المستضعفين في أعينهم...»[1].

ومن ذلك افتتان الناس ببعض أولياء الله تعالى ـ كأصحاب الكهف والأئمة عليهم السلام ـ حيث اختلفوا فيهم، فمنهم من جعلهم آلهة، ومنهم من قصّر في حقهم، ومنهم من كان على الطريق المستقيم.

وأما الابتلاء في مجال السلوك فكالابتلاء في أداء الصلاة والزكاة والحج وترك المحرمات كالزنى والكذب وغيرهما.

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «ما ابتلي العباد بشيء أشد عليهم من إخراج الدرهم»[2].

وعن الإمام علي الرضا عليه السلام: «فإنّه عزّ وجلّ خلق خلقه ليبلوهم بتكليف طاعته وعبادته لا على سبيل الامتحان، لأنّه لم يزل عليماً بكلّ شيء».

---

(1) نهج البلاغة: الخطبة ١٩٢.
(2) ميزان الحكمة.

وفي دعاء الإمام السّجاد عليه السلام: «ثمّ أمرنا ليختبر طاعتنا ونهانا ليبتلي شكّنا»[1].

عن الإمام علي عليه السلام في اختبار النّاس بفريضة الحج أنّهُ قال: «ألا ترون أنّ الله سبحانه اختبر الأولين من لدن آدم صلوات الله عليه إلى الآخرين من هذا العالم بأحجار لا تضرُّ ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، فجعلها بيته الحرام الّذي جعله للنّاس قياماً، ثمّ وضعه بأوعر بقاع الأرض حجراً، وأقل نتائق الأرض مدراً، وأضيق بطون الأودية قطراً، بين جبال خشنة ورمال دمثة، وعيون وشلة وقرى منقطعة، لا يزكو بها خف ولا حافر، ثمّ أمر آدم وولده أن يثنوا أعطافهم نحوه»[2].

ومِمَّا يذكر في هذا المجال قصة أصحاب «طالوت» الّذين ابتلوا بالنهر وهم في أشد حالات العطش وذلك بأن حرّم عليه الشرب من النهر إلاَّ في حدود غرفة اليد، قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ﴾ (سورة البقرة: الآية: ٢٤٩).

الابتلاء بالجهاد:

إنَّ محنة الهجرة، والجهاد، والقتل، والسجن، والحرب الإعلامية المضادة هي عملية اختبار وتمحيص للمؤمنين.

قال الله تعالىٰ: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ

(١) نور الثقلين: ج٥، ص٣٨٠.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة ١٩٢.

أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ (سورة آل عمران: الآية: ١٨٦).

والابتلاء في الأموال والأنفس هو الوقوع في تكاليف خاصة حسب المصالح.

ومثال الأوَّل هو التكاليف الآمرة ببذل الأموال في الصدقات، وقضاء الحوائج، وما تتطلبه الدعوة على المؤمن، وما يفقد في أثناء الحروب والقتال.

والثاني مثل التكليف ببذل النَّفس ومنْ يحب من الأهل والأولاد في سبيل الله، ويدخل فيه التسليم للأمراض والآفات... ويدخل في النَّفس الرزايا في الأولاد والأهل ومنْ يحبه الإنسان من الأصدقاء[1].

وجاء في الحديث عن الإمام علي الرِّضا عليه السلام في تفسير الآية أنَّهُ قال: «في أموالكم بإخراج الزكاة، وفي أنفسكم بالتوطين على الصبر»[2].

ومن الوقائع الَّتي ابتلى الله بها المؤمنين هي واقعة «الأحزاب» وفي ذلك يقول الله تعالىٰ: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١﴾ (سورة الأحزاب: الآيتان: ١٠ ـ ١١).

ففي هذه الواقعة ظهرت نوايا المسلمين، فمنهم منْ وقف ثابتاً

---

(١) مواهب الرَّحمٰن: ج٧، ص١٤٧.

(٢) المصدر نفسه: ص١٦٢.

مجاهداً في سبيل الله تعالىٰ كالإمام علي عليه السلام، ومنهم منْ أيس من رحمة الله وظنَّ بالله الظنُّونا، ومنهم منْ قال: ما وعدنا الله ورسوله إلاَّ غروراً، وهكذا «ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً».

الابتلاء بالتفاوت في الخلق

لقد جعل الله تعالىٰ النَّاس متفاوتين في قواهم الجسدية وقدراتهم العقلية وأوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية، ففيهم الغني والفقير والقوي والضعيف، والذكي والغبي.

والحكمة من ذلك هي تحقيق سُنَّة الابتلاء قال الله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ (سورة الأنعام: الآية: ١٦٥)، وقال تعالىٰ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (سورة المائدة: الآية: ٤٨).

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (سورة البقرة: الآية: ٢٥١).

وهكذا يُبتلى الغني بالفقير، والراعي برعيته، والعالم بالجاهل.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ (سورة الفرقان: الآية: ٢٠).

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «الفقير عند الغني فتنة، والضعيف عند القوي فتنة»[١].

---

(١) ميزان الحكمة.

الابتلاء بالملك:

الملك من أخطر الأمور التي يبتلى بها الإنسان، قال الله تعالى: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (سورة الأعراف: الآية ١٢٩).

عن الإمام علي عليه السلام: «ثلاث يمتحن بها عقول الرجال هنّ: المال، والولاية، والمصيبة»[1].

الابتلاء بالشّيطان

الشّيطان هو من أخطر المخلوقات التي يبتلى بها الإنسان.

قال الله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم﴾ (سورة الأعراف: الآية ٢٧).

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ (سورة سبأ: الآية ٢١).

البلاء في آخر الزّمان:

عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال: «يأتي على النّاس زمان لا يبقى فيهم من القرآن إلاّ رسمه، ومن الإسلام إلاّ اسمه، ومساجدهم يومئذ عامرة من البناء، خراب من الهدى، سكّانها وعمّارها شرّ أهل الأرض، منهم تخرج الفتنة، وإليهم تأوي الخطيئة، يردّون من شذّ عنها فيها، ويسوقون من تأخّر عنها إليها، يقول الله سبحانه: فبي حلفت لأبعثنّ على أولئك فتنة تترك الحليم فيها حيران»[2].

---

(1) ميزان الحكمة: مادة (الامتحان).

(2) ميزان الحكمة.

عن رسول الله ﷺ أنَّهُ قال: «ينزل بأُمَّتي في آخر الزَّمان بلاء شديد من سلطانهم لم يُسمع ببلاء أشدّ منه، حَتَّىٰ تضيق عليهم الأرض الرحبة، وحَتَّى تُملأ الأرض جوراً وظلماً ولا يجد المؤمن ملجأ يلتجىء إليه من الظلم فيبعث الله عزَّ وجلَّ رجلاً من عترتي فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما مُلئت ظلماً وجوراً، يرضى عنه ساكن السَّماء وساكن الأرض، لا تدخر الأرض من بذرها شيئاً إلاَّ أخرجته، ولا السَّماء من قطرها شيئاً إلاَّ صبَّه الله عليهم مدراراً، يعيش فيهم سبع سنين أو ثمان أو تسع، تتمنى الأحياء الأموات مِمَّا صنع الله عزَّ وجلَّ بأهل الأرض من خيره»[1].

---

(١) الإمام المهدي عليه السلام: للقرشي، ص٢٤٩.

الفصل الثالث

مَنْ المُبتلى؟

لا يختصُّ الابتلاء بإنسان دون آخر وإنَّما يشمل جميع أفراد بني آدم، سواء أكانوا مؤمنين أم كافرين وذلك لما أسلفنا من أنَّ الابتلاء سُنَّة إلٰهيَّة.

ولكن ابتلاء الأفراد يقع على درجات متفاوتة في الشدَّة والضعف، كما يختلف باختلاف أنواع البلاء.

عن الإمام الصَّادق عليه السلام أنَّهُ قال: «إنَّ في كتاب علي عليه السلام «إنَّ أشدَّ النَّاس بلاءً النَّبيُّون ثمَّ الوصيُّون ثمَّ الأمثل فالأمثل، وإنَّما يُبتلى المؤمن على قدر أعماله الحسنة، فمنْ صحَّ دينه وحسن عمله اشتد بلاؤه، وذلك إنَّ الله تعالىٰ لم يجعل الدُّنيا ثواباً لمؤمن ولا عقوبة لكافر، ومنْ سخُفَ دينه وضعُف عقله قلَّ بلاؤه، وإنَّ البلاء أسرع إلى المؤمن التقي من المطر إلى قرار الأرض»[1].

(١) الأربعون حديثاً: ص٢٢٦.

عن الإمام الصَّادق عليه السلام: «إن كان النَّبي من الأنبياء ليُبتلى بالجوع حَتَّى يموت جوعاً، وإن كان النَّبي من الأنبياء ليُبتلى بالعطش حَتَّى يموت عطشاً، وإن كان النَّبي من الأنبياء ليُبتلى بالعراء حَتَّى يموت عرياناً.

وإن كان النَّبي من الأنبياء ليبتلى بالسقم والأمراض حَتَّى تتلفه.

وإن كان ليأتي قومه فيقوم فيهم يأمرهم بطاعة الله ويدعوهم إلى توحيد الله وما معه مبيت ليله فما يتركونه يفرغ من كلامه ولا يستمعون إليه حَتَّى يقتلوه، وإنَّما يبتلي الله عباده على قدر منازلهم عنده»[1].

وعن الإمام الكاظم عليه السلام: «إنَّ الأنبياء وأولاد الأنبياء وأتباع الأنبياء خصُّوا بثلاث خصال: السقم في الأبدان، وخوف السلطان، والفقر»[2].

وعن سدير قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: هل يبتلي الله المؤمن؟ فقال: وهل يُبتلى إلاَّ المؤمن؟ حَتَّى أنَّ صاحب ياسين ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ﴾ كان مكنعاً، قلت: وما المكنع؟ قال: كان به جذام»[3].

وعن الإمام الصَّادق عليه السلام: «قال الله عزَّ وجلَّ: لولا أن يجد عبدي المؤمن في قلبه لعصبت رأس الكافر بعصابة حديد لا يصدع رأسه أبداً»[4].

---

(١) دار السَّلام: ج٤، ص١٧٥.

(٢) ميزان الحكمة: مادة «الفقر».

(٣) ميزان الحكمة.

(٤) المصدر نفسه.

وقد اعتبرت الأحاديث الشريفة أنَّ الإنسان الَّذي لا يُبتلى هو
إنسان بعيد عن الله تعالىٰ.

فعن رسول الله ﷺ: «لا حاجة لله فيمنْ ليس له في ماله وبدنه نصيب»[1].

وعن الإمام زين العابدين عليه السلام: «إنِّي لأكره أن يُعافى الرجل في الدُّنيا ولا يصيبه شيء من المصائب»[2].

ويُروى أنَّ رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ وعرض عليه أن يزوِّجه ابنته ومِمَّا قاله للرَّسول ﷺ عن ابنته: إنَّها لم تمرض في حياتها فعندها رفض النَّبي ﷺ الزواج بها.

ويُروى أنَّهُ نزل ضيفاً على أحد المسلمين ومعه جماعة من أصحابه فسقطت بيضة من الحائط ولم تنكسر فتعجبوا، فقال صاحب البيت: ما رزُئت قط، فقال ﷺ لأصحابه: قوموا وقال: «منْ لم يرزء فما لله فيه من حاجة»[3].

عن يونس بن يعقوب قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: ملعون كل بدن لا يُصاب في كل أربعين يوماً، قلت: ملعون؟ قال: ملعون، قلت: ملعون؟ قال: ملعون، فلمَّا رآني قد عظم ذلك عليَّ قال: «يا يونس إنَّ من البلية الخدشة، واللطمة، والعثرة، والنكبة، والهفوة، وانقطاع الشسع، واختلاج العين، واشباه ذلك، إنَّ المؤمن

---

(1) ميزان الحكمة.
(2) المصدر نفسه.
(3) دار السَّلام: ج٤، ص١٩٠.

أكرم على الله من أن يمرُّ عليه أربعون يوماً لا يمحصه فيها من ذُنوبه ولو بغمٍّ يصيبه لا يدري ما وجهه.

والله إنَّ أحدكم ليضع الدراهم بين يديه فيزنها فيجدها ناقصة فيغتم بذلك ثمَّ يعيد وزنها فيجدها سواء فيكون ذلك حطّاً لبعض ذُنوبه»[١].

وليُعلم أنَّ الابتلاء لا يكون جُزافاً وإنَّما لحكمة إلٰهيَّة فقد ورد في الحديث القدسي: «وإنَّ من عبادي منْ لا يصلحه إلاَّ الغنى، ولو صرفته إلى غير ذلك لهلك، وأنَّ من عبادي من لا يصلحه إلاَّ الفقر ولو صرفته إلى غير ذلك لهلك»[٢].

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «إنَّ الله ضائن يضن بهم عن البلاء فيحييهم في عافية، ويرزقهم في عافية، ويميتهم في عافية، ويسكنهم الجَنَّة في عافية»[٣].

نماذج من ابتلاء الأولياء

ابتلاء آدم (ع):

وهو أول مَنْ ابتُلي في تاريخ الإنسانية، فقد أُبتلي عليه السلام بعدم الأكل من الشجر وبالهبوط إلى الأرض.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا

(١) التمحيص: ص٣٩٨.
(٢) الأربعون حديثاً: ص٥١٦.
(٣) رياض السالكين: ج٤، ص١٣٥.

حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ (سورة البقرة: الآيتان: ٣٥ ـ ٣٦).

ابتلاء إبراهيم (ع):

أُبتلي النَّبي إبراهيم عليه السلام في عدَّة أُمور أهمها:

١ ـ الهجرة من أرض عبدة الأصنام، والاتجاه نحو أصقاع نائيه لأداء رسالة التَّوحيد.

٢ ـ الإلقاء في النَّار.

٣ ـ إسكان زوجته وولده في أرض لا زرع فيها ولا ماء.

٤ ـ أن يذبح ولده بيده وقد عبَّر القرآن عن هذا البلاء بأنَّهُ «البلاء المبين».

وقد نجح عليه السلام في كل هذه الابتلاءات بحيث صار أهلاً لمقام «الإمامة» وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ (سورة البقرة: الآية: ١٢٤).

ابتلاء النبي يوسف (ع):

أُبتلي النَّبي يوسف عليه السلام بجمال الوجه فصارت نسوة المدينة يدعونه للفاحشة وعلى رأسهنَّ إمرأة العزيز، إلاَّ أنَّهُ عليه السلام استعصم عنهنَّ وآثر دخول السجن على معصية الله تعالىٰ.

كما أُبتلي بالوصول إلى أعلى المناصب في الدولة المصرية

آنذاك بأن صار أميناً على خزائن الدولة، وأُبتلي بعد ذلك بمواجهة إخوته وفي كل ذلك هو النَّبي المعصوم الَّذي ينجح في الابتلاء.

ابتلاء النبي موسى (ع):

أُبتلي النَّبي موسى عليه السلام بعدَّة أُمور وقد عبَّر عنها القرآن بقوله: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ أهمَّها:

١ ـ دعوة فرعون إلى عبادة الله تعالىٰ مع ما كان عليه فرعون من الظلم والطغيان.

٢ ـ بنو إسرائيل وما هم عليه من الانحراف، والفساد، ونقض الميثاق، وحب المال، وقتل الأنبياء...

٣ ـ بلعم بن باعورا، وقارون، والسامري.

عن الإمام الباقر عليه السلام: «أنَّ فيما ناجى الله به موسى عليه السلام: يا رب، هذا السامري صنع العجل الخوار من صنعه، فأوحى الله تبارك وتعالىٰ إليه، أنَّ تلك فتنتي فلا تفصحنَّ عنها»[١].

ابتلاء النبي أيوب (ع):

لقد اقترن البلاء بأيوب ردحاً طويلاً من الزمن، فقد أصيب بفقد الأولاد والأموال ثمَّ بالمرض العضال وهو مع ذلك صابراً محتسباً حَتَّى صار لفظ «بلاء أيوب» و«صبر أيوب» من الأمثال الدائرة على الألسن.

---

(١) الكافي: ج٨، ص٢١٧.

ابتلاء النبي سليمان (ع):

أُبتلي سليمان عليه السلام بكثرة النعم الدنيوية فقد ملك الدُّنيا من شرقها إلى غربها، وانقادت له الجن والإنس، والطير والوحوش، وسخَّر الله له الريح تجري بأمره، وفي ذلك كُلِّه كان سليمان عليه السلام شاكراً لله تعالىٰ.

ابتلاء النبي محمَّد (ص):

أُبتلي النَّبي محمَّد صلى الله عليه وآله ببلاءٍ فاق بلاء الأنبياء والأوصياء، حَتَّى ورد عن لسانه أنَّهُ قال: «ما أُوذي أحد مثل ما أُوذيت»[(١)].

وعنه صلى الله عليه وآله: «ما زلت أنا ومنْ كان قبلي من النبِّين والمؤمنين مُبتلين بمَنْ يؤذينا، ولو كان المؤمن على رأس جُبل لقيَّض الله مَنْ يؤذيه ليأجره على ذلك»[(٢)].

فقد صُبَّت عليه الابتلاءات على اختلاف أنواعها، فقد ضُرب، وشُرِّد، وطُورد وأُستهزىء به، واتُهم بالسحر والجنون، وأُذوي في أهل بيته إلى غير ذلك مِمَّا هو مشهور وفي الكتب مسطور.

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «لما أُسري بالنبي صلى الله عليه وآله [إلى السَّماء] قيل له: إنَّ الله مختبرك في ثلاث فينظر كيف صبرك. قال: أُسلِّم لأمرك يا رب ولا قُوَّة لي على الصبر إلاَّ بك، فما هنَّ؟ قيل: أولهنَّ الجوع والأثرة على نفسك وعلى أهلك لأهل الحاجة. قال: قبلت يا رب ورضيت وسلمت ومنك التوفيق والصبر.

---

(١) التمحيص: ص٣٩٠.

(٢) دار السَّلام: ج٤، ص١٧٥.

وأمّا الثانية فالتكذيب والخوف الشديد وبذلك مهجتك في محاربة أهل الكفر بمالك ونفسك والصبر على ما يصيبك منهم من الأذى ومن أهل النفاق والألم في الحرب والجراح. قال: يا رب قبلت ورضيت وسلّمت ومنك التوفيق والصبر.

وأمّا الثالثة فما يلقى أهل بيتك من بعدك من القتل، أمّا أخوك عليّ فيلقى من أُمّتك الشتم والتعنيف والتوبيخ والحرمان والجهد والظلم وآخر ذلك القتل. فقال: يا رب سلّمت وقبلت ومنك التوفيق والصبر.

وأمّا ابنتك ـ أقول: ثمّ أخبر النبي ﷺ بمصائب ابنته عليها السلام إلى أن قال ـ ويكون لها من أخيك ابنان يُقتل أحدهما غدراً ويُسلب ويُطعن، تفعل به ذلك أُمّتك. قال: قبلت يا رب وإنّا لله وإنّا إليه راجعون وسلّمت ومنك التوفيق والصبر.

وأمّا ابنها الآخر فتدعوه أُمّتك إلى الجهاد ثمّ يقتلونه صبراً ويقتلون ولده ومَنْ معه من أهل بيته ثمّ يسلبون حرمه فيستعين بي وقد مضى القضاء منّي فيه بالشهادة له ولمَنْ معه ويكون قتله حُجّة على مَنْ بين قطريها فيبكيه أهل السّموٰات والأرضين جزعاً عليه وتبكيه ملائكة لم يدركوا نصرته، ثمّ أخرج من صلبه ذكراً به أنصرك وأن شبحه عندي تحت العرش ـ الحديث»[1].

ابتلاء الإمام علي (ع):

وهو أعظم النّاس بلاءً بعد رسول الله ﷺ حتّى أنّه قال: «ما

---

(١) نفس المهموم: ص٥٨.

زلت مظلوماً منذ ولدتني أمي»، وقال: «ما زلت مظلوماً منذ قبض الله نبيه إلى يوم النَّاس».

وسمع أعرابياً يقول: «وامُظلمتاه» فقال له: أدن، فدنا، فقال له: لقد ظُلمت عدد المدر والوبر»، وروي أنَّهُ لم يصعد منبراً إلاً قال آخر كلامه قبل أن ينزل: «ما زلت مظلوماً منذ قبض الله نبيه»[1].

أقول: إنَّ ابتلاءات الإمام علي عليه السلام معروفة في التاريخ فقد ابتلي منذ شبابه بالدفاع عن الإسلام حَتَّى وتر الأقرب والأبعد فأبغضته قريش وحقدت عليه فانتظرت وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأظهرت ذلك فأقصته عن حقه وضربت زوجته وأقعدته في بيته، ثمَّ لم يزالوا به حَتَّى صاروا يقرنوه بأرذل النَّاس، ويُعرف ذلك من كتاب له إلى معاوية يقول فيه: «فيا عجباً للدَّهر إذ صرت يقرن بي منْ لم يسمع بقدمي ولم تكن له كسابقتي».

وعنه عليه السلام أنَّه قال: «كنت في أيَّام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كجزء من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ينظر إليَّ النَّاس كما يُنظر إلى الكواكب في أفق السَّماء، ثمَّ غضَّ الدَّهر منِّي فقُرن بي فلان وفلان»[2].

ابتلاء الإمام الحسين (ع):

ما عُرف إنسان بالبلاء كما عُرف سيِّد الشُّهداء الإمام الحسين عليه السلام فقد اجتمعت عليه جميع أنواع البلاء في يوم عاشوراء

(١) كتاب الإمام علي منْ حب عنوان الصحيفة: ص٥٥٥.
(٢) منْ أراد التوسعة فليرجع إلى كتاب الإمام علي منْ حب عنوان الصحيفة.

حَتَّى ورد في الحديث أنَّ جبرائيل قال لآدم: «يُقتل عطشاناً غريباً وحيداً فريداً ليس له ناصر ولا معين، ولو تراه يا آدم وهو يقول: واعطشاه واقلة ناصراه حَتَّى يحول العطش بينه وبين السَّماء كالدخان، فلم يجبه أحد إلاَّ بالسيوف وشرب الحتوف، فيُذبح ذبح الشاة من قفاه، وينهب رحله أعداؤه وتشهر رؤوسهم هو وأنصاره في البلدان ومعهم النسوان كذلك سبق في علم الواحد المنَّان»[1].

ابتلاء الشيعة:

ذكرت الرِّوايات الشَّريفة أنَّ الشيعة هم أكثر النَّاس ابتلاءً ومن ذلك:

عن الإمام الصَّادق عليه السلام: «كان علي عليه السلام يقول: إنَّ البلاء أسرع إلى شيعتنا من السيل إلى قرار الوادي».

وعنه عليه السلام: «الجوع والخوف أسرع إلى شيعتنا من ركض البراذين»[2] والبرذون هو نوع من الخيول.

ومن يرجع إلى التاريخ الإسلامي يجد شدة الابتلاءات الَّتي وقعت على شيعة أهل البيت عليهم السلام، فهم مُشردون في البلدان، محبوسون في السجون، مستضعفون مقتولون.

روي عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام أنَّه قال لبعض أصحابه: «يا فلان ما لقينا من ظلم قريش إيَّانا وتظاهرهم علينا وما لقي شيعتنا ومحبونا من النَّاس، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قبض وقد أخبر إنَّا أولى النَّاس بالنَّاس فمالأت علينا قريش حَتَّى أخرجت الأمر عن

(١) نفس المهموم: ص٥١.
(٢) التمحيص: ص٣٩٧.

معدنه واحتجت على الأنصار بحقنا وحجتنا ثمَّ تداولتها قريش واحداً بعد واحد حَتَّى رجعت إلينا فنكثت بيعتنا ونصبت الحرب لنا.

ولم يزل صاحب الأمر في صعود كؤود حَتَّى قُتل فبويع الحسن ابنه وعوهد ثمَّ غُدر به وأسلم ووثب عليه أهل العراق حَتَّى طُعن بخنجر في جنبه وأُنتهب عسكره وعُوجلت خلاخل أمهات أولاده فوادع معاوية وحقن دمه ودم أهل بيته، وهم قليل حق قليل.

ثمَّ بايع الحسين من أهل العراق عشرون ألفاً، غدروا به وخرجوا عليه وبيعته في أعناقهم، فقتلوه.

ثمَّ لم نزل أهل البيت نُستذل ونُستضام ونُقصى ونُمتهن ونُحرم ونُقتل ونَخاف ولا نأمن على دمائنا ودماء أوليائنا، ووجد الكاذبون الجاحدون لكذبهم وجحودهم موضعاً يتقربون به إلى أوليائهم وقضاة السوء في كل بلدة فحدثوهم بالأحاديث الموضوعة المكذوبة ورووا عنّا ما لم نقله وما لم نفعله ليبغضونا إلى النَّاس.

وكان عظم ذلك وكبره زمن معاوية بعد موت الحسن، فقُتلت شيعتنا بكُلِّ بلدة وقُطِّعت الأيدي والأرجل على الظنَّة، منْ ذكر بحبنا والانقطاع إلينا سجن أو نُهب ماله أو هدمت داره ثمَّ لم يزل البلاء يشتدُّ ويزداد إلى زمان عبيد الله ابن زياد قاتل الحسين ثمَّ جاء الحجاج فقتلهم كل قتلة وأخذهم بكُلِّ ظنَّة وتهمة حَتَّى أن الرجل ليُقال له زنديق أو كافر أحبُّ إليه أن يُقال شيعة علي»[1].

وفي رسالة من الإمام أبي عبد الله الصَّادق عليه السلام إلى أصحابه،

(١) أعيان الشيعة: ج١، ص٣٤.

جاء فيها: «فاتقوا الله أيتها العصابة الناجية أن أتمّ الله لكم ما أعطاكم به فإنَّه لا يتمّ الأمر حَتَّى يدخل عليكم مثل الَّذي دخل على الصالحين قبلكم وحَتَّى تبتلوا في أنفسكم وأموالكم وحَتَّى يستذلوكم ويبغضوكم، وحَتَّى يحملوا عليكم الضيم فتحملوه منهم، تلتمسون بذلك وجه الله والدَّار الآخرة، وحَتَّى يكذبوكم بالحق، ويعادوكم فيه، ويبغضوكم عليه، فتصبروا على ذلك منهم، ومصداق ذلك كله في كتاب الله الَّذي أنزله جبرائيل عليه السلام على نبيكم، سمعتم قول الله عزَّ وجلَّ لنبيكم صلى الله عليه وآله: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ (سورة الاحقاف: الآية: ٣٥) ثمَّ قال: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ﴾ (سورة الأنعام: الآية: ٣٤) فقد كذب نبي الله والرُّسل من قبله وأُوذوا مع التكذيب بالحق، فإنَّ سرَّكم أمر الله فيهم الَّذي خلقهم له في الأصل ـ أصل الخلق ـ من الكفر الَّذي سبق في علم الله أن يخلقهم له في الأصل، ومن الَّذين سمَّاهم الله في كتابه في قوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ (سورة القصص: الآية: ٤١) فتدبروا هذا واعقلوه ولا تجهلوه، فإنَّه من يجهل هذا وأشباهه مِمَّا افترض الله عليه في كتابه مِمَّا أمر الله به ونهى عنه ترك دين الله وركب معاصيه فاستوجب سخط الله فأكبه الله على وجهه في النَّار»[1].

ابتلاء المجتمعات:

كما أنَّ للأفراد ابتلاءات كذلك الحال في الجماعات والأُمم على اختلاف أديانهم وألوانهم وقومياتهم فمن المجتمعات من تُبتلى

---

(١) بحار الأنوار: ج٧٥، ص٢١٣.

بالفقر، أو الخوف وعدم الأمن والاستقرار، أو الدمار الشامل وغير ذلك من أنواع المصائب...

فقد ابتلى الله تعالىٰ بعض الأقوام بحبس المطر عنهم كالمصريين في عهد النَّبي يوسف ﷺ وأُبتلي بعضهم بعدم نزول المطر كقوم نوح ﷺ، كما ابتلى بعض الأقوام بالرِّياح كقوم عاد، وبالصواعق كقوم ثمود، وبالزالزل كقوم شعيب، وبالخسف كقارون، وبالطيور كأصحاب الفيل، وبالجراد والقمل والضفادع والدم كقوم فرعون.

وما كل هذه الابتلاءات إلاَّ لرفض تلك الجماعات الإيمان بالله تعالىٰ وتطبيق الشريعة الدِّينيَّة، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَـٰلِمُونَ﴾ (سورة القصص: الآية: ٥٩)، وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَـٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ (سورة الأنعام: الآية: ٦).

وقد تبتلى الأُمم بالاستغراق في النعم المادية كقوم سبأ، قال الله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَـٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾ (سورة سبأ: الآيتان: ١٥ ـ ١٦).

وقد تُبتلى بعض الجماعات الدِّينيَّة كابتلاء الشيعة عبر التاريخ بالاضطهاد والظلم ليميز الله الَّذين يثبتون على الإيمان من غيرهم،

قال الله تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ (سورة العنكبوت: الآيات: ١ ـ ٣)، وقال تعالىٰ: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ (سورة آل عمران: الآية: ١٨٦)، وقال تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (سورة البقرة: الآية: ٢١٤).

وعن الإمام علي عليه السلام: «والَّذي بعثه بالحق لتبلبلنَّ بلبلة ولتغربلنَّ غربلة، ولتساطنَّ سوط القدر حتَّى يعود أسفلكم أعلاكم وأعلاكم أسفلكم»[1].

وعن الإمام الصَّادق عليه السلام: «لا بُدَّ للنَّاس من أن يُمحصَّوا ويُغربلوا ويُستخرج في الغربال خلق كثير»[2].

عن الإمام الصَّادق عليه السلام: «قد كان قبلكم قوم يُقتلون ويُحرقون ويُنشرون بالمناشير وتضيق عليهم الأرض برحبها فما يردَّهم عمَّا هم عليه شيء مِمَّا هم فيه من غير تره وتروا من فعل ذلك بهم ولا أذى، بل ما نقموا منهم إلاَّ أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد، فاسألوا الله ربكم درجاتهم واصبروا على نوائب دهركم تدركوا سعيهم»[3].

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٦.
(٢) الأربعون حديثاً: ص٢٢٩.
(٣) ميزان الحكمة.

شروط الابتلاء

إنَّ الابتلاء مشروط بالقدرة على تحمُّله إذ ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ﴾.

كما أنَّهُ مشروط بالقدرة على الاختيار إذ لا تكليف فيما هو جبر على الإنسان. قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ (سورة الإنسان: الآية: ٢).

يقول الشَّيخ الفلسفي: «إنَّ الخلق من نطفة أمشاج ليس ميزاناً لتفوق الإنسان لأنَّ جميع الحيوانات قد خلقت هكذا، أمَّا الميزة فهي من «نبتليه» ومعناه أنَّهُ خُلق قادراً على أداء الامتحان وأُعطى الحرية لأداء الامتحان فمنْ يريد أن يمتحن تلميذاً من حيث معلوماته فلا بُدَّ من منحه الحرية للإجابة»[1].

---

(١) الشباب: ج١، ص١٣٩.

الفصل الخامس

فلسفة الابتلاء

لا ريب في أنَّ ما يجهله الإنسان أكثر مِمَّا يعلمه، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (سورة الإسراء: الآية: ٨٥).

ولذلك فإن عجزنا عن معرفة أسرار الحياة وما فيها من بلايا ومصائب يجعلنا نقف منها موقف الجاهل أمام العالم، فلا بُدَّ أن نُسلِّم فيها لله تعالىٰ بكُلِّ رضًىٰ وتسليم، فإنَّ منْ يؤمن بعلم الله وحكمته فإنَّه يُسلم بأنَّ كُلّ ما يأتي من عند الله تعالىٰ هو خير، فعن الإمام جعفر الصَّادق عليه السلام: «إنَّ أعلم النَّاس بالله أرضاهم بقضاء الله»(١).

ويشير القرآن الكريم إلى أنَّ لبعض الحوادث خير كثير إلاَّ أنَّ النَّاس لا يعلمون بها لعلمهم بالأُمور الظاهرية فقط، ومن ذلك:

١ ـ قوله تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن

(١) نفحات القرآن: ج٤، ص٤٠٦.

تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (سورة البقرة: الآية: ٢١٦).

٢ ـ قوله تعالىٰ: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (سورة النساء: الآية: ١٩).

٣ ـ قصة الخضر عليه السلام مع نبي الله موسى عليه السلام، فقد كانت أعمال الخضر عليه السلام قبيحة في الظاهر إلاَّ أنَّها كانت عين الصواب في واقع الأمر.

وعلى هذا، فإنَّ ما يقع في عالم الدُّنيا من ابتلاءات وامتحانات هو خيرٌ للإنسان في دُنياه وآخرته، وإنْ كان يراه شَراً بحسب نظرته الضيقة.

ولذلك فإنَّنا سنذكر في هذا الفصل فلسفة الابتلاء الدنيوي ليدرك القارىء مدى أهمية البلاء في حكمة الخلق وتطور الحياة.

وقبل الدخول في تفاصيل الهدف من الابتلاء، لا بُدَّ من الإجابة على السؤال التالي، وهو:

هل الله تعالىٰ بحاجة إلى اختبار عبادة وهو العالم بنواياهم وأفعالهم؟

الجواب: إنَّ الله تعالىٰ يبتلي عباده ليظهر ما يضمرونه في نفوسهم، وكما ورد عن الإمام علي عليه السلام قوله: «... وإنْ كان سبحانه أعلم بهم من أنفسهم، ولكن لتظهر الأفعال الَّتي بها يُستحق الثواب والعقاب»[1].

---

(١) نهج البلاغة: كلمة ٩٣.

كما أنَّهُ تعالىٰ يبتليهم إتماماً للحُجَّة عليهم: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة الأنفال: الآية: ٤٢).

البلاء وتكامل الإنسان:

يُعتبر الابتلاء من أهم العوامل الَّتي تساعد على تكامل الإنسان ورقيه العقلي والرُّوحي، فهو تربية عملية لطاقات الإنسان الَّتي توصله نحو الكمال.

وهذا ما نجده جلياً في الحياة العملية فإنَّ الإنسان لا يصير قوياً في جبهات القتال إلاَّ إذا لاقىٰ أقسىٰ أنواع التدريب، كما لا يصبح قائداً إلاَّ إذا مرَّ في حياته بتجارب تصقل شخصيته القيادية.

ومقابل ذلك فإنَّ الإنسان إذا لم يتعرض للمشاكل في حياته فإنَّ طاقاته ستبقى جامدة هامدة لا تنمو ولا تتفتح، فالوالدان اللذان يدللان أولادهم ويبعدوهم عن الصعوبات والشدائد إنَّما يربُّون أولاداً ضعفاء الشخصية.

ومن هنا نجد أنَّ الله تعالىٰ يأمر نبيِّه محمَّد ﷺ بالتعب والعمل في سبيل الله بقوله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾ (سورة الشرح: الآيتان: ٧ ـ ٨).

وهكذا نجد أنَّ الأنبياء تحملوا الشدائد والصعاب قبل النُّبوَّة فموسى عليه السلام ـ مثلاً ـ يُبتلىٰ في بيت فرعون، وفي الهجرة إلى شعيب عليه السلام وفي رعى الغنم، ويوسف عليه السلام يُبتلىٰ بالضرب والإلقاء في الجبّ، والسجن وغير ذلك.

بل نرى أنَّ الأنبياء عليهم السلام كانوا يأثرون الفقر على الغنى

والابتلاء على الراحة ومن ذلك ما روي أن جبرائيل نزل على رسول الله ﷺ ومعه مفاتيح خزائن الأرض وهو يخيّره بين الغنى والملك أو الفقر، فاختار النبي ﷺ الفقر وقال: أحبّ أن أجوع يوماً وأشبع يوماً[1].

وإلى هذه الحقيقة أشار الإمام علي ﷺ بقوله: ألا وإن الشجرة البرية أصلب عوداً، والروائع الخضرة أرق جلوداً، والنباتات البدوية أقوى وقوداً وأبطأ خموداً[2].

وورد في الحديث: إن الله إذا أحب عبداً غتّه بالبلاء غتّاً[3].

والغت هو الغطس بالماء أي أن الله تعالى إذا أحب عبداً غطّسه في الشدائد وألقاه فيه، وذلك لأنها طريق تكامل الإنسان ورقيه. فكما أن تعلّم السباحة حين يأتيه من يريد تعليمه السباحة فإنه يحمله على إلقاء نفسه في الماء ليصبح سبّاحاً ماهراً. فالله عندما يحب عبداً يريد أن يوصله إلى الكمال فإنه يغرقه في البلاء، ولو قرأ الإنسان كتباً عن السباحة بدون ممارسة عملية للسباحة فإن قراءته لن تعلّمه السباحة ولكنه يتعلّم عندما يتعرض لأخطار الماء والغرق.

يقول علماء الحيوان إن أنواعاً من صغار الطير عندما ينبت عليها الريش تخرج بها أمهاتها من أعشاشها وترتفع بها في الفضاء ثم تتركها تهوي لكي تتعلم الطيران بنفسها، فتروح صغارها تضرب أجنحتها بالهواء حتى تتعب وتوشك أن ترتطم بالأرض. عندئذٍ تأتي

---

(1) الأربعون حديثاً، ص٢٣٣.
(2) نهج البلاغة، الخطبة ٤٥.
(3) بحار الأنوار، ج٨٢، ص٥٥.

الأُم وتفرش أجنحتها تحتها، وتعيد التجربة مرّات ومرّات حَتَّى تتكامل فراخها وتطير لوحدها.

وهكذا يمتحن الله الإنسان بالشدائد ليصل به إلى كماله اللائق به.

وبتعبير آخر: إنَّ الله تعالىٰ قد أعدَّ لتربية الإنسان وكماله برنامجين:

برنامج تشريعي وآخر تكويني: وتحتل الشدائد والصعاب مكاناً لها في كلا البرنامجين.

ففي المنهاج التشريعي فرض العبادات، وفي المنهاج التكويني جعل المصائب على رأس كل طريق يسلكه الإنسان.

فالصوم والحج والإنفاق والصَّلاة كلها شدائد أوجدها التكليف الشرعي، والصبر إزاءها والاستقامة في أدائها يوجب تكميل النُّفوس وتربية الاستعدادات الرفيعة للإنسان.

أمَّا الجوع والخوف والمرض والموت فهي شدائد أوجدها النظام التكويني لتربية الإنسان ورقيه وكماله.

وكيمياء الحياة لها عنصران: الحب والبلاء، فهما عاملا النبوغ والكمال.

عن الإمام علي عليه السلام: «لا تفرح بالغناء والرخاء، ولا تغتم بالفقر والبلاء، فإنَّ الذهب يجرب بالنَّار، والمؤمن يجرب بالبلاء»[١].

---

(١) ميزان الحكمة.

ورد في الحديث عن الإمام علي عليه السلام أنَّهُ قال: «ولكنَّ الله يختبر عباده بأنواع الشدائد، ويقيدهم بأنواع المجاهد، ويبتليهم بضروب المكاره إخراجاً أبواباً فُتَّحا إلى فضله وأسباباً ذُللاً إلى عفوه»[1].

البلاء إخراج للطاقات البشرية وتحقيق لهدف الخليقة:

إنَّ من أهداف الابتلاء هو إبراز الطاقات الكامنة في الإنسان وإخراجها من القُوَّة إلى الفعل، فكل إنسان مفطور على القابليات والطاقات العظيمة إلاَّ أنَّ ظهورها يحتاج إلى وقوعه في خضم الامتحانات، والاختبارات، فكما أنَّ البذرة لا تتفتح وتصير نباتاً وشجراً إلاَّ بعد الاختبارات والصراعات الطبيعية كذلك الإنسان فإنَّهُ لا تتفتح طاقاته الكامنة فيه إلاَّ بعد أن يوضع في ظروف الاختبارات والابتلاءات.

وإلى هذا المعنى يشير الحديث الوارد عن الإمام علي عليه السلام: «ولا يقولنَّ أحدكم «اللَّهمَّ إنِّي أعوذ بك من الفتنة» لأنَّهُ ليس أحد إلاَّ وهو مشتمل على فتنة، ولكن منْ استعاذ فليستعذ بالله من مضلّات الفتن فإنَّ الله سبحانه يقول: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ ومعنى ذلك أنَّهُ يختبرهم بالأموال والأولاد ليتبين الساخط لرزقه والراضي بقسمه وإنْ كان سبحانه أعلم بهم منْ أنفسهم، ولكن لتظهر الأفعال الَّتي بها يستحق الثواب والعقاب لأنَّ بعضهم يحب الذكور ويكره الإناث وبعضهم يحب المال ويكره انثلام الحال»[2].

---

(١) نهج البلاغة.

(٢) نهج البلاغة: الحكمة رقم ٩٣.

يقول الشيخ مصباح اليزدي حفظه الله: «اختباره تعالىٰ للنَّاس لا يهدف منه إلى العلم بما لا يعلم، وإنَّما هو يوفِّر لهم الأرضية ليثبتوا أنفسهم ويجسِّدوا ما في باطنهم بشكل عملي ويوصلوا استعدادهم إلى مرحلة الفعلية، فللإنسان استعدادات متعددة وتتجلَّىٰ هذه الاستعدادات في ظروف خاصة بأشكال متنوعة، والله سبحانه هيأ المجال في هذا العالم لكُلِّ إنسان أن يحقق استعداداته ويفرغ ما في ذاته، فإمَّا أن يختار الطَّريق الصحيح أو الطَّريق المنحرف»[1]

ومن هنا نفهم السِّر في الآيات الَّتي تذكر أنَّ الهدف من خلق الإنسان هو الابتلاء، كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ (سورة الإنسان: الآيتان: ٢ ـ ٣)، وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ (سورة الملك: الآية: ٢).

فإنَّ الابتلاء يبرز الطاقات البشرية الَّتي توصل الإنسان إلى السعادة والكمال كما أنَّهُ يردع الإنسان عن المعاصي الَّتي تقف في طريق كماله وسعادته.

ولا تعارض في هذه الآيات، والآيات الَّتي تبين أنَّ هدف الخليقة هو العبادة أو المعرفة فإنَّ هذه الأهداف مترتبة بأجمعها بشكل طولي وليس عرضي، «فالإنسان إذا أراد نيل تلك الرحمة الخاصَّة الَّتي أعدَّها الله لأوليائه فلا بُدَّ له أن يختار طريق عبادته تعالىٰ، والعبادة الحرَّة لا بُدَّ أن تتم عن طريق الاختيار، ولا بُدَّ أن

---

(١) معارف القرآن: ج١، ص٢٣٤.

يكون هناك طريقان: طريق الله وطريق الشَّيطان لكي يمتحن الإنسان، فالاختيار مُقدَّم على عبادة الله وعبادته تعالىٰ مقدِّمة على الرحمة.

إذن يمكن القول أنَّ الإنسان خلق ليُبتلىٰ ليؤدِّي العبادة الاختيارية ليصل إلى رحمة الله الأبدية الخالدة فهذه أهداف طولية وليست متعارضة»[1].

علو الدرجات جزاءٌ للابتلاءات:

أعدَّ الله تعالىٰ لعباده درجات عالية في الجنان لا يصلون إليها إلاَّ من خلال الابتلاء بأموالهم وأنفسهم وهذا ما ورد في الرِّوايات الشَّريفة:

عن رسول الله ﷺ أنَّهُ قال: «إنَّ الرجل ليكون له الدرجة عند الله لا يبلغها بعمله، يبتلىٰ ببلاء في جسمه فيبلغها بذلك»[2].

وعن الإمام جعفر الصَّادق عليه السلام: «أنَّه ليكون للعبد منزلة عند الله فما ينالها إلاَّ بإحدىٰ الخصلتين: إمَّا بذهاب ماله أو ببلية في جسده»[3].

وعنه عليه السلام: «إنَّ عظيم الأجر لمع عظيم البلاء، وما أحبَّ الله قوماً إلاَّ ابتلاهم»[4].

عن عبد الله بن يعفور قال: شكوت إلى أبي عبد الله عليه السلام ما

---

(١) معارف القرآن: ج١، ص٢٣٩.
(٢) ميزان الحكمة.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) الأربعون حديثاً: ص٢٣٣.

ألقى من الأوجاع وكان سقاماً، فقال لي: يا عبد الله لو يعلم المؤمن ما له من الجزاء في المصائب لتمنى أنَّهُ قُرض بالمقاريض»[1].

عن الإمام الصَّادق عليه السلام: «لو أنَّ مؤمناً كان في قلة جبل لبعث الله إليه من يؤذيه ليأجره على ذلك»[2].

ومن ذلك ما رُوي أنَّ الإمام الحسين عليه السلام رأى رسول الله صلى الله عليه وآله في المنام فأخبره: «إنَّ لك درجة في الجَنَّة لا تنالها إلاَّ بالشهادة»[3].

وقال أبو ذرَّ الغفَّاري في حال الاحتضار: «اللَّهمَّ خنقني خناقك، فوحقك إنَّكَ لتعلم إنِّي أحب لقاءك»[4].

وفي الرواية: «مرَّ موسى عليه السلام على رجل في معبد له ثمَّ مرَّ به بعد ذلك وقد مزقت السباع لحمه، فرأس ملقي، وفخذ ملقى فقال موسى: يا رب عبدك كان يطيعك فابتليته بهذا؟ فأوحى الله إليه يا موسى: إنَّه سألني درجة لم يبلغها بعمله فابتليته بهذا لأبلغه بتلك الدرجة»[5].

وكُلَّما كان الابتلاء أكثر كان الجزاء أعظم.

فعن الإمام علي عليه السلام: «... كُلَّما كانت البلوىٰ والاختبار أعظم كانت المثوبة والجزاء أجزل»[6].

---

(١) دار السَّلام: ج٤، ص١٧٣.
(٢) دار السَّلام: ج٤، ص١٧٤.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) أبو ذرَّ الغفَّاري: ص١٥٢.
(٥) مواهب الرَّحمٰن: ج٩، ص٣٦١.
(٦) ميزان الحكمة.

الإعراض عن الدُّنيا والإقبال نحو الآخرة:

يقول آية الله الخميني قدِّس سرُّه: «إعلم وقد سبق منَّا الحديث بأنَّ كل عمل يصدر من الإنسان، بل كل ما يقع منه في عالم مُلك الجسم، وكان مدركاً للنفس، يترك أثراً لدى النَّفس، من دون فرق بين الأعمال الحسنة أو السيئة، ومن دون فرق بين أن يكون العمل من نوع الأفراح أو نوع الأتراح. وقد عُبِّر عن هذا الأثر في الأخبار بنقطة بيضاء ونقطة سوداء مثلاً: إنَّ كل لذة مِمَّا يلتذ الإنسان به من المطعومات أو المشروبات أو المنكوحات أو غيرها، يترك أثراً في النَّفس، ويحصل تعلقاً ومحبة في عمق الرُّوح تجاهه ـ الشيء الَّذي تمتع فيه ـ ويزداد توجه النَّفس إليه، وكُلَّما توغل في اللذائذ والمشتهيات أكثر، ازداد تعلق النَّفس وحبها لهذا العالم أكثر. وغدا ركونه واعتماده على هذا العالم أكبر، فتتربى النَّفس وترتاض على التعلق بالدُّنيا، وكُلَّما كانت المتع في ذائقته أحلىٰ، كانت جذور محبَّة الدُّنيا في قلبه أكثر، وكُلَّما توفرت وسائل العيش والعشرة والراحة بشكل أوفى، أصبحت درجة التعلق بالدُّنيا أقوى، وكُلَّما أقبلت النَّفس على الدُّنيا أكثر، كُلَّما كانت غفلته عن الحق وعالم الآخرة أكثر، فإنَّ نفس الإنسان إذا ركنت إلى الدُّنيا كُلياً وصار توجهها مادياً ودنيوناً، انصرف عن الحق المتعال ودار الكرامة نهائياً و﴿أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾.

فالإنهماك في بحر اللذائذ والمشتهيات يصرف الإنسان إلى حب الدُّنيا من دون اختيار، وحب الدُّنيا يوجب النفور عن غيرها، والإقبال على المُلك ـ الماديات ـ يسبب الغفلة عن الملكوت ـ عالم الغيب ـ. وكذلك العكس فلو أنَّ الإنسان استاء من شيء

وشعر ببشاعته، استدعت صورة ذلك الشيء الكراهية والنفور، وكُلّما كانت تلك الصورة في النَّفس أقوى كان النفور والانزجار أكثر.

فمثلاً: إذا دخل شخص إلى بلد وابتلى بأسقام وآلام فيه، وعانى من ورائه مشاكل داخلية وخارجية لكرهه تنفر منه، وكُلّما كانت معاناته أكثر، كان هروبه ونفوره منه أكثر، وإذا وجد مدينة أفضل منه لأقبل عليها، وإن لم يستطع التحرك نحوها، لاشتاق إليها، وتوجَّه قلبه نحوها.

فالإنسان إذا عاش هموم الدُّنيا وآلامها وأسقامها ومشاكلها وعنائها، وشعر بأنَّ أمواج الفتن والمحن تزحف نحوه، خفَّ تعلقه بها ـ أي الدُّنيا ـ وقلَّ ركونه إليها ونفر قلبه منها. وإذا اعتقد بوجود عالم آخر، وفضاء رحب فارغ من جميع أنواع الشقاء والتعاسة، ارتحل إليه. وإذا لم يتمكن من السفر بجسمه لذهب بروحه وبعث بقلبه إلى ذلك العالم.

وواضح جداً أنَّ المفاسد الروحية والخلقية والسلوكية بأسرها تنجم عن حب الدُّنيا والغفلة عن الله سبحانه وعالم الآخرة، وإنَّ حبُّ الدُّنيا رأس كل خطيئة.

في حين أنَّ الصلاح الروحي والخلقي والسلوكي ينبعث من التوجه نحو الحق، ودار الكرامة ـ عالم الآخرة ـ ومن اللامبالاة بالدُّنيا وعدم الانبهار بزخارفها.

إذاً، علمنا من هذا التمهيد بأنَّ لطف الحق تبارك وتعالىٰ وعنايته كُلّما شملت لشخص أكثر، ووسعته رحمة الذات المقدَّسة

بصورة أوفى، كُلّما أبعده سبحانه عن هذا العالم وزخرفة أكثر، ودفع عنه أمواج المحن والفتن أكثر، حَتَّى تنقلع رغبته في الدُّنيا وزركشتها، ووجَّه وجهه حسب مستوى إيمانه إلى عالم الآخرة وارتبطت روحه بذلك العالم.

وإن لم تكن جدوى من احتمال شدائد المحن إلاَّ هذه الجهة ـ الانزجار والإعراض عن الدُّنيا والإقبال نحو الآخرة ـ لوحدها، لكفى.

وفي الأحاديث الشَّريفة إشارة إلى هذا المعنى:

محمَّد بْنَ يَعْقُوب بإسناده عَنْ أبي جَعْفَر عليه السلام قَالَ: «إنَّ الله تعَالىٰ ليَتَعاهَدَ المؤمنَ بالْبَلاءِ كَما يَتَعاهَدُ الرَّجُل أَهْلَهُ بِالهَدِيَّة مِنَ الغيبةِ وَيَحْمِيهِ الدُّنْيا كَما يَحْمِي الطَّبِيبُ الْمَرِيض»[1].

في الحديث: «هبط جبرئيل في أحسن صورة فقال: يا محمَّد الحق يقرئك السَّلام ويقول لك: إنِّي أوحيت إلى الدُّنيا أن تمرري وتكدري وتضيقي وتشددي على أوليائي حَتَّي يحبُّوا لقائي وتيسري وتسهلي وتطيبي لأعدائي حَتَّى يبغضوا لقائي فإنِّي جعلت الدُّنيا سجناً لأوليائي وجَنَّة لأعدائي»[2].

عن الإمام محمَّد الباقر عليه السلام: يقول الله تعالىٰ: «يا دُنيا مرِّي على عبدي المؤمن بأنواع البلايا وما هو فيه من أمر دُنياه وضيقي عليه في معيشته ولا تحلى له فيسكن إليك»[3].

(١) الأربعون حديثاً: ص٢٣٠.
(٢) ميزان الحكمة.
(٣) دار السَّلام: ج٤، ص١٧٤.

وعن الإمام الصّادق عليه السلام: «إنّ الله ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الغائب بالطرق وأنَّهُ ليحميه الدُّنيا كما يحمي الطبيب المريض، يخصُّ أولياءه بالمصائب ليؤجرهم عليها من غير ذنب»[1].

هنا ومن ثَمَّ كان الأولياء (ع) يزهدون في الدُّنيا فهذا موسى كليم الله الَّذي اصطفاه لوحيه وكلامه ما طلب حين آوىٰ إلى الظل بقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ إلاَّ خبزاً يأكله لأنَّهُ كان يأكل بقلة الأرض ويروى أنَّ الله تعالىٰ قال: «يا موسى إرْضَ بكسرة من شعير تسدُّ بها جوعتك، وبخرقة تواري بها عورتك، واصبر على المصائب، وإذا رأيت الدُّنيا مقبلة عليك فقل: «إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، عقوبته عجلَّت في الدُّنيا، وإذا رأيت الدُّنيا مدبرة عنك، فقل مرحباً شعار الصالحين! يا موسى لا تعجبنَّ بما أُوتي فرعون وما مُتِّع به فإنَّما هي زهرة الحياة الدُّنيا، وهكذا جميع الأنبياء والمرسلين» وكان أفضلهم وأشرفهم نبينا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم يشدُّ الحجر على بطنه من الجوع.

كما روي أنَّهُ صلى الله عليه وآله وسلم أصابه يوماً الجوع فوضع حجراً على بطنه ثمَّ قال: «ألا ربّ مكرم لنفسه وهو لها مهين، ألا ربّ مهين لنفسه وهو لها مكرم، ألا ربّ نفس جائعة عارية في الدُّنيا، طاعمة في الآخرة ناعمة يوم القيامة، ألا ربّ نفس كاسية ناعمة في الدُّنيا، جائعة عارية يوم القيامة، ألا ربّ متخفض متنعم فيما أفاء الله على

(١) دار السّلام: ج٤، ص١٧٤.

رسوله، ما له في الآخرة من خلاق، ألا إنَّ عمل أهل الجَنَّة جنَّة بربوة، ألا أنَّ عمل أهل النَّار كلمة سهلة بشهوة، ألا ربَّ شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً يوم القيامة».

وقد خرج رسول الله ﷺ من الدُّنيا ولم يضع لبنة على لبنة ورأى رجلاً يبني بيتاً بجصّ وآجّر فقال الأمر أعجل من هذا.

وقال سويد بن غفلة: دخلت على أمير المؤمنين عليه السلام بعدما بويع بالخلافة وهو جالس على حصير ليس في البيت غيره، فقلت: يا أمير المؤمنين بيدك بيت المال ولست أرى في بيتك شيئاً مِمَّا يحتاج إليه البيت فقال: «يا ابن غفلة، إنَّ البيت لا يتأثث في دار النقلة ولنا دار نقلنا إليها خير متاعنا وإنَّا عن قليل إليها صائرون».

الابتلاء حب إلٰهي:

مقتضى الحب بين إثنين هو دوام الانجذاب والاتصال بينهما، وحب الله تعالىٰ لعبده يقتضي أن يجذبه إليه في كل الأحوال، وهو ما يتم من خلال الابتلاء فـ«حينما يريد الله أن يوثق العلاقة بينه وبين إنسان ما فإنَّهُ يستدعي رفيقه الأمين الَّذي هو الهمّ، وينبّه عليه أن يلاحقه أينما توجَّه ويشدِّد عليه بأن يلازمه في كل خطواته».

من هنا وردت الأحاديث التالية:

عن الإمام جعفر الصَّادق عليه السلام: «وما أحبَّ الله قوماً إلاَّ ابتلاهم».

وعنه عليه السلام: «إنَّ لله عزَّ وجلَّ في الأرض من خالص عباده ما ينزل من السَّماء تحفة إلى الأرض إلاَّ صرفها عنهم إلى غيرهم ولا بلية إلاَّ صرفها إليهم».

وعنه ﷺ: «إنَّ الله إذا أحبَّ عبداً غتَّه بالبلاء غتّاً وأنا وإيَّاكم يا سدير لنصبح به ونمسي»[1].

وعنه ﷺ: «إنَّ الله لو أحبَّ عبداً بعث إليه ملكاً فيقول اسقمه وشدِّد البلاء عليه فإذا بري من شيء فابتله لما هو أشدّ منه وقوّ عليه حَتّى يذكرني فإنّي اشتهىٰ أن أسمع دعائه».

وعنه ﷺ: «إذا أحبَّ الله عبداً ابتلاه فإذا أحبَّه الله الحب البالغ اقتناه، قالوا: وما اقتناؤه، قال: لا يترك له مالاً ولا ولداً»[2].

وعنه ﷺ: «إنَّ رجلاً قال له: والله إنِّي لأحبكم أهل البيت فقال ﷺ: فاتخذ للبلاء جلباباً فوالله إنَّهُ لأسرع إلينا وإلى شيعتنا من السيل في الوادي»[3].

وفي الحديث: «إنَّ العبد ليبتهل ويدعو الله تعالىٰ أن يرحمه فيقول الله تعالىٰ لملائكته: كيف أرحمه من شيء به أرحمه»[4].

البلاء يقظة من الغفلة:

إنَّ التمتع بالنعم المادية والاستغراق في اللذائذ والشهوات يوجب غفلة الإنسان عن الجوانب المعنوية والقضايا الغيبية، وبالتالي يلهو عن الهدف الأساسي الَّذي خُلق من أجله، وعن الآخرة والعمل لها، وكما عبَّر القرآن الكريم: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ (سورة التكاثر: الآية: ١).

---

(١) دار السَّلام: ج٤، ص١٧٣.
(٢) المصدر نفسه: ص١٧٤.
(٣) المصدر نفسه: ص١٧٦.
(٤) مسكن الفؤاد: ص١٩.

وهكذا إنسان لا بُدَّ له من صدمة توقظه من غفلته وسكره، وتعيده إلى رشده وعقله، ومن أكثر الأشياء الَّتي تساعد على ذلك هي «الابتلاءات الدنيوية»، وكُلَّما كان الإنسان مستغرقاً في الغفلة كُلَّما احتاج إلى صدمة أكبر فأكبر، ولذلك فإنَّ القرآن الكريم يذكر أنَّ سبب ابتلاء الأُمم هو رجوعهم إلى الله تعالىٰ.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ (سورة الأعراف: الآية: ٩٤).

وقال تعالىٰ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (سورة الروم: الآية: ٤١).

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (سورة السجدة: الآية: ٢١).

ورد في إحدى خُطب نهج البلاغة عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنَّهُ قال: «إنَّ الله يبتلي عبادَهُ عند الأعمال السيِّئة بنقص الثمرات وحبس البركات وإغلاق خزائن الخيرات ليتوب تائبٌ، ويُقْلِعَ مُقلعٌ ويتذكَّر متذكِّرٌ يزدجر مُزدجرٌ»!.

وعنه عليه السلام: «إنَّ البلاء للظالم أدب، وللمؤمن امتحان وللأنبياء درجة وللأولياء كرامة»!.

وفي حديث عن الإمام الصَّادق عليه السلام أنَّهُ قال: «المؤمنُ لا يمضي عليه أربعون ليلة إلاَّ عرض له أمر يُحزنه يذّكر به».

وعنه عليه السلام: إذا أراد الله عزَّ وجلَّ بعبدٍ خيراً فأذنب ذنباً تبعَهُ بنقمة فيُذكِّره الاستغفار، وإذا أراد الله بعبدٍ شرّاً فأذنب ذنباً تبعَهُ

بنعمة ليُنسيهُ الاستغفار، ويتمادىٰ به، وهو قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بالنِعَمْ عِنْدَ المعاصي»![1].

عن الإمام علي عليه السلام: «إذا رأيت الله سُبحانه يُتابع عليك البلاء فقد أيقظك، وإذا رأيت الله سُبحانه يُتابع عليك النعم مع المعاصي فهو استدارجٌ لك».

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «لولا ثلاثة ما طأطأ ابن آدم رأسه، الفقر والمرض والموت»[2].

وذلك لأنَّ الفقر يمنع الإنسان من الطغيان ويشعره بالاحتياج إلى العمل والتعب وفي ذلك ترقيق للقلب ومجاهدة للنفس، وقد تقدَّم أنَّ النَّبيّ محمَّد صلى الله عليه وآله كان يحبُّ الفقر على الغنىٰ.

وأمَّا المرض فهو يجعل الإنسان قريباً من الله تعالىٰ، وذلك للإنكسار والخضوع اللذان يبدوان عليه، وهو دائماً في حال التوجه إلى الله تعالىٰ وذكره.

وأمَّا الموت فلأنَّهُ منتهىٰ التسليم لأمر الله، فلا طاقة للإنسان حيال الموت.

البلاء سبب لمعرفة النعم وتقديرها:

إنَّ الكثير من النَّاس لا يدركون قيمة النعم الَّتي أنعم الله بهاعليهم لاستغراقهم فيها، كالسمكة الَّتي تعيش في الماء ولا تدرك

---

(١) نفحات قرآنية: ج٤، ص٤٢٨.

(٢) أصول الدين: ج٣، ص٤٩.

أهمية نعمة الماء، ولذلك فإنَّهم يقصِّرون في شكر المنعم تبارك وتعالىٰ وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم بقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾.

وهنا يأتي البلاء ليذكِّر الإنسان بنعم الله تعالىٰ، وليُعرِّفه قيمة النعم الإلٰهيَّة فإنَّ «الضد يظهر حسنه الضدّ»، وإنَّ المرض يظهر قيمة الصحة، وإنَّ الفقر يظهر قيمة الغنىٰ، وإنَّ الذُّلّ يظهر قيمة العز، وهكذا.

وإلى هذه الحقيقة يشير القرآن الكريم بقوله: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ (سورة الأنعام: الآية: ٦٣)، وقوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ (سورة هود: الآية: ١٠).

وعن الإمام جعفر الصَّادق عليه السلام أَنَّهُ قال: «إنَّ هذه الآفات وإنْ كانت تنال الصالح والطالح جميعاً، فإنَّ الله تعالىٰ جعل ذلك صلاحاً للصنفين كليهما، أمَّا الصالحون فإنَّ الَّذي يصيبهم من هذا يردُّهم (يذكرهم) نِعَم ربهم عندهم في سالف أيَّامهم، فيحدوهم على الشكر والصبر، وأمَّا الطالحون فإنَّ مثل هذا إذا نالهم كسر شرتهم وردعهم عن المعاصي والفواحش»[1].

يذكر سعدي قصة في هذا المضمار فيقول: «سافر رجل على متن سفينة فلمَّا أبحرت اضطرب وأقلق راحة الركَّاب، وكان فيهم رجل حكيم فأمر به فألقي في البحر، فلمَّا صار الرجل في الماء

---

(١) نفحات قرآنية: ج٤، ص٤٣٥.

أخذ يسبح للوصول إلى السفينة ولكن دون جدوى، ولما أوشك على الغرق أمر الحكيم بإنقاذه إلى السفينة، ولمَّا سُئل من سرِّ فعله قال: كان لا بُدَّ أن يسقط في البحر ليعرف قيمة السفينة».

البلاء كفَّارة للذُّنوب:

ذكرت الرِّوايات ـ البالغة فوق حدِّ التواتر ـ أنَّ لبعض البلايا تكفيراً عن الذُّنُوب في الدُّنيا.

فعن الإمام الصَّادق عليه السلام: «إنَّ الله يطهِّر شيعتنا من ذُنوبهم في الدُّنيا بما يبتليهم به من المحن».

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «قال الله تعالىٰ: وعزتي لا أُخرِج عبداً من الدُّنيا أريد رحمته إلاَّ استوفيت كل سيئة هي له إمَّا بالضيق في رزقه، أو ببلاءٍ في جسده، وإمَّا خوف أدخله عليه، فإن بقي عليه شيء شددت عليه الموت»[1].

عن الإمام الصَّادق عليه السلام: «لا تزال الغموم والهموم بالمؤمن حَتَّى لا تدع له ذنباً».

وعنه عليه السلام: «إنَّ العبد إذا كثرت ذُنوبه ولم يكن عنده من العمل ما يكفِّرها ابتلاه الله بالحزن ليكفِّرها»[2].

عن الإمام الباقر عليه السلام: «أنَّ ملكين هبطا من السَّماء فالتقيا في الهواء فقال أحدهما لصاحبه: فيما هبطت؟ قال: بعثني الله (عزَّ

(١) دار السَّلام: ج٤، ص١٨٣.
(٢) التمحيص: ص٤١١.

وجلَّ) إلى بحر «إيل» أحشر سمكة إلى جبّارٍ من الجبابرة اشتهى سمكة في ذلك البحر، فأمرني أن أحشر إلى الصياد سمك البحر حَتَّى يأخذها له ليبلغ الله عزَّ وجلَّ الكافر غاية مناه في كفره، ففيما بُعثت أنت؟ قال: بعثني الله عزَّ وجلَّ في أعجب من الَّذي بعثك فيه، بعثني إلى عبده المؤمن الصائم القائم المعروف دعاؤه وصوته في السَّماء لأُكفي قدره الَّتي طبخها لإفطاره ليبلغ الله في المؤمن الغاية في اختبار إيمانه»[1].

عن أبي عبد الله عليه السلام كان لموسى بن عمران عليه السلام أخٌ في الله، وكان موسى عليه السلام يكرِّمه ويحبُّهُ ويعظِّمه، فأتاه رجلٌ فقال: إنِّي أحبُّ أن تكلم لي هذا الجبَّار ملكاً من ملوك بني إسرائيل، فقال: والله ما أعرفه ولا سألته حاجة قطّ، قال: وما عليك هذا لعلَّ الله عزَّ وجلَّ يقضي حاجتي على يدك؟ فرقَّ له وذهب معه من غير علم موسى، فأتاه ودخل معه فلما رآه الجبَّار أدناه وعظَّمه فسأله حاجة الرجل فقضاها له فلم يلبث الجبَّار أن طعن فمات فحشد في جنازته أهل مملكته وغلقت لموته أبواب الأسواق لحضور جنازته، وكان من القضاء أنَّ الشاب المؤمن أخا موسى عليه السلام مات يوم مات ذلك الجبَّار، وكان أخو موسى عليه السلام إذا دخل منزلاً غلق عليه بابه فلا يصل إليه أحد، وكان موسى عليه السلام إذا أراده فتح الباب ودخل عليه، وأنَّ موسى نسيه ثلاثاً، فلمَّا كان اليوم الرابع ذكره موسى فقال: قد تركت أخي منذ ثلاث فلم آته ففتح عنه الباب ودخل عليه وإذا الرجل ميت وإذا الدواب قد دبَّت إليه فتناولت من محاسن وجهه،

---

(١) دار السَّلام: ج٤، ص١٩٢.

فلمّا راه موسى عند ذلك قال: يا رب عدوك حشدت له النّاس ووليك أمتّه فسلّطت عليه دواب الأرض تناولت من محاسن وجهه؟ فقال عزَّ وجلَّ: يا موسى إن وليّي سأل هذا الجبّار حاجته فقضاها له فحشدت أهل مملكته للصّلاة عليه لأُكافئه عن المؤمن بقضاء حاجته ليخرج من الدُّنيا وليس له عندي حسنة أكافئه عليها، وإنَّ هذا المؤمن سلّطت عليه دواب الأرض لتناول من محاسن وجهه لسؤاله ذلك الجبّار، وكان لي غير رضا ليخرج من الدُّنيا وما له عندي ذنب».

عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قال: «مرَّ نبي من أنبياء بني إسرائيل برجل بعضه تحت حائط وبعضه خارج منه، فما كان خارجاً منه قد نقبته الطير ومزقته الكلاب، ثمَّ مضى ورفعت له مدينة فدخلها فإذا هو بعظيم من عظمائها ميت على سرير مسجّىً بالديباج حوله المجامر فقال: يا رب إنَّكَ حكم عدل لا تجور عبدك لم يشرك طرفة عين أمتّه بتلك الميتة وهذا عبدك لم يؤمن بك طرفة عين أمتّه بهذه الميتة؟ فقال عزَّ وجلَّ: عبدي أنا كما قلت حكم عدل لا أجور، ذاك عبدي كانت له عندي سيئة وذنب فأمته بتلك الميتة لكي يلقاني ولم يبق عليه شيء، وهذا عبدي كانت له عندي حسنة فأمِتّه بهذه الميتة لكي يلقاني وليس له عندي شيء»[1].

البلاء نتيجة الذُّنُوب:

إنَّ الكثير من البلايا والمحن هي نتيجة لما عمله الإنسان من

(١) دار السّلام: ج٤، ص١٨٤.

ذنوب ومعاصي ومفاسد في سواء في المجال الفردي أو الاجتماعي أو الكوني، فالمرض، والفقر، والذل، والموت، والمجاعة وغير ذلك إنَّما هي فعل الإنسان نفسه، قال الله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ (سورة النساء: الآية: ٧٩)، وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (سورة الروم: الآية: ٤١).

ويضرب الله مثلاً على ذلك، فيقول: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ (سورة النحل: الآية: ١١٢)، ويقول عن بعض الأُمم: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (سورة العنكبوت: الآية: ٤٠).

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «ما من نكبة تصيب العبد إلاَّ بذنب»[1].

وعن الإمام علي عليه السلام: «وأيم الله ما كان قوم قط في خفض عيش فزال عنهم إلاَّ بذُنوبٍ اقترفوها لأنَّ الله ليس بظلامٍ للعبيد»[2].

وفي هذا المجال يذكر القرآن الكريم نتيجة البخل في الإنفاق في سبيل الله ويضرب لذلك مثلاً بأصحاب البستان فيقول: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ

(١) الكافي: ج٢، ص٢٦٩.
(٢) الطفل: ج١، ص٢١.

﴿كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (سورة القلم: الآيات: ١٧ ـ ٣٣).

عن الإمام الصَّادق عليه السلام أنَّهُ قال: «إنَّ الله تعالىٰ إذا غضب على أُمَّةٍ، ثمَّ لم يُنزل بها العذاب أغلىٰ أسعارها وقصَّر أعمارها ولم تربح تجارتها ولم تغزرُ أنهارها ولم تُزكَّ ثمارها وسلَّط عليها شرارها وحبس عليها أمطارها».

ورد في حديثٍ آخر عن الإمام الرِّضا عليه السلام أنَّه قال: «كُلَّما أحدث العباد من الذُّنُوب ما لم يكونوا يعملون أحدث لهم من البلاء ما لم يكونوا يعرفون».

في رواية أخرى عن الإمام الصَّادق عليه السلام أنَّهُ قال: «منْ يموت بالذُّنُوب أكثر مِمَّن يموت بالآجال، ومنْ يعيش بالإحسان أكثر مِمَّن يعيش بالإعمار».

وعنه أيضاً عليه السلام: «إنَّ الرجل ليُذنب الذَّنب فيُحرمُ صلاة اللَّيل وإنَّ عمل الشَّر أسرع في صاحبه من السكِّين في اللحم»!

عن الإمام الباقر عليه السلام أنَّهُ قال: «وجدنا في كتاب

رسول الله ﷺ أنّه قال: «إذا ظهر الزنى من بعدي كثُر موت الفجأة، وإذا طفّف المكيال والميزان أخذهم الله بالسنين والنقص، وإذا منعوا الزكاة منعت الأرض بركتها من الزرع والثمار والمعادن كُلّها، وإذا جاروا في الأحكام تعاونوا على الظلم والعدوان، وإذا نقضوا العهد سلّط الله عليهم عدوّهم، وإذا قطعوا الأرحام جُعلت الأموال في أيدي الأشرار، وإذا لم يأمروا بالمعروف ولم ينهوُا عن المنكر، ولم يتّبعوا الأخيار من أهل بيتي، سلّط الله عليهم شرارهم، فيدعوا خيارهم فلا يُستجاب لهم»!

نُقِلَ ـ في تفسير سورة نوح ـ حديث لطيف في هذا المجال فقد ورد أنَّ رجُلاً جاء إلىٰ علي عليه السلام وقال له: يا أمير المؤمنين! أذنبتُ كثيراً من الذُّنُوب وسوَّدت بها صحيفة أعمالي فادعو ليغفر لي ربّي، فقال عليه السلام: عليك بالاستغفار.

وجاءه رجلٌ آخر وقال: أصاب مزارعي الجفاف بسبب قلّة المياه فادعو الله ليُنزل الغيث، فقال عليه السلام: عليك بالاستغفار.

وجاءه آخر وقال: أنا رجل فقير وقد أنهكني الفقر فادعو الله ليمُنَّ عليَّ من عميم لطفه، فقال له: عليك بالاستغفار.

وجاءه رابعٌ وقال: لي ثروة طائلة ولكن لا ذريَّة لي فادعو الله سبحانه وتعالىٰ ليهب لي ذريَّة، فقال له: عليك بالاستغفار!

وقام إليه آخر وقال: يا سيِّد الوصيِّين، إنَّ بستاني شحيح الثمار، فادعو الله ليبارك فيها، فقال عليه السلام: عليك بالاستغفار.

وقال آخر: يا علي! جفَّت عيون المياه في أرضنا، وشحَّت

فروع الأنهار، وحلَّ بنا القحط، فأسألك الدُّعاء يا سيِّدي، فقال عليه السلام: عليك بالاستغفار!

يقول ابن عبَّاس: كنت حاضراً عند أمير المؤمنين عليه السلام فقلت له: يا أمير المؤمنين سألوك أسئلة مختلفة وأجبتهم جواباً واحداً! فقال عليه السلام: يابن عمِّي! أولَمْ تسمع هذه الآيات (عن لسان نوح عليه السلام) الَّتي تقول: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾﴾ (سورة نوح: الآيات: ١٠ ـ ١٢)[١].

البلاء استدراج:

وهو التوسعة على العبد عقوبة له على معصيته، وليس هو دليل على رضىٰ الله عنه، قال الله تعالىٰ: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

فعن الإمام الصَّادق عليه السلام أنَّهُ سُئل عن الاستدراج؟ فقال: هو العبد يذنب الذَّنب فيُملي له ويُجدِّد له عنده النعم فيلهيه عن الاستغفار من الذُّنوب فهو مستدرج من حيث لا يعلم».

وعن الإمام علي عليه السلام: «كم من مستدرج بالإحسان إليه ومغرور بالستر عليه، ومفتون بحسن القول فيه، وما ابتلى الله سبحانه أحداً بمثل الاملاء».

وعنه عليه السلام: «أيُّها النَّاس ليراكم من النعمة وجلين كما يراكم من النقمة، أنَّه منْ وسع عليه في ذات يده فلم يرَ ذلك استدراجاً فقد آمن مخوفاً».

(١) نفحات قرآنية: ج٤، ص٤٢٠.

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «قال الله تعالىٰ: «ما من عبدٍ أريد أن أدخله النَّار إلاَّ صحَّحت له جسمه، فإن كان ذلك تمام طلبه عندي وإلاَّ وسعت عليه رزقه، فإنْ كان ذلك تمام طلبه عندي وإلاَّ يسَّرت عليه عند الموت حَتَّى يأتيني ولا حسنة له ثمَّ أدخله النَّار»[1].

والقرآن الكريم ينبّه الإنسان الَّذي يرى أنَّ النعم دليل رضى الله عليه وأنَّ النقم دليل سخط الله عليه، فيقول: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ۝١٦﴾ (سورة الفجر: الآيتان: ١٥ ـ ١٦).

فهذا النوع من التفكير: أي كون النعمة إكراماً والتقدير في الرِّزق إهانة تردَّه الآية بل ربَّما يكون التقدير في الرِّزق إكراماً واقعياً كما يكون النعمة إكراماً حقيقياً وذلك إذا كان صابراً حال الفقر دون الغنى وقد ورد عن سيِّد المرسلين قوله: «الفقر فخري».

البلاء إظهار للحقائق:

كثير من النَّاس يدّعون الإيمان والاستقامة وحب الجهاد والصلاح إلاَّ أنَّهم لا يُعرفون على حقيقتهم إلاَّ بعد الاختبار والابتلاء ولهذا كان الابتلاء إظهاراً لما في نفوسهم.

ولا يعني هذا أنَّ الله تعالىٰ يجهل حال الإنسان فإنَّ الله سبحانه يعلم السِّر وأخفىٰ، وعلمه سبحانه محيط بجميع الأشياء على أنَّه تعالىٰ خالقها ومبدعها وكيف يمكن جهله بمخلوقه ومبتدعه؟ ألا يعلم مَنْ خلق؟ فإنّ البنَّاء الَّذي يبني بيتاً يعلم أساسه ومواده.

---

(١) دار السَّلام: ج٤، ص١٨٨.

وأمَّا قوله تعالىٰ: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ فالمراد كما قاله الطباطبائي (قده) علمه تعالىٰ الفعلي الَّذي هو نفس الأمر الخارجي فإنَّ الأُمور الخارجية بنفسها من مراتب علمه تعالىٰ، وأمَّا علمه تعالىٰ الذاتي فلا يتوقف على الامتحان البتَّة فالحكمة الإلٰهيَّة في الامتحان لظهور بواطن الأفراد للآخرين لئلا يقعوا في الخطأ والضلال، فإنَّ كثيراً من النَّاس يتظاهرون في المجتمعات على خلاف ما في أنفسهم، فيقع النَّاس في الاشتباه في حقهم، وإذا جاء وقت الامتحان يتبين خلاف ما أظهروه فأكثر مسلمي الصدر الأول للإسلام كانوا أصحاب الجمعة والجماعات وأصحاب السيوف والمجاهدين في سبيل الله ولكنَّهم عند الامتحان انقلبوا على أعقابهم أمثال طلحة والزبير. فطلحة كان قد أسلم بمكَّة قبل الهجرة ثمَّ هاجر مع النَّبي ﷺ إلى المدينة وشهد معه أكثر مشاهده ولما استخلف عليّ عليه السلام كان أوَّل من بايعه، ثمَّ كان أول من نكث بيعته.

وهكذا الزبير فإنَّهُ كان من المجاهدين الذابِّين عن الإسلام إلاَّ أنَّه نكث البيعة وحارب أمير المؤمنين عليه السلام.

هذا وربَّما تكون الحكمة في الامتحان تبيَّن حال الإنسان لنفسه فإنَّ الإنسان بسبب حبه لنفسه ـ[والحب يستر العيوب ولا يرى المحب في محبوبه عيباً] ـ يرى نفسه مؤمنة زكية طاهرة من العيوب فيقيمه الله تعالىٰ مقام الامتحان فتنكشف حقيقته لنفسه.

يقول داود الرقي أحد أصحاب الإمام الصَّادق عليه السلام: «كنت

عند الإمام الصَّادق عليه السلام فجاء رجل من خراسان اسمه سهل فقال للإمام الصَّادق عليه السلام: ما الَّذي يمنعك أن يكون لك حق تقعد عنه وأنت تجد من شيعتك مائة ألف يضربون بين يديك بالسيف فأمر عليه السلام بأن يسجر التنور ثمَّ قال: يا خراساني، قم فاجلس في التنور فقال: يا سيِّد لا تعذبني بالنَّار أقلني أقالك الله، قال قد أقلتك، فبينا كذلك إذ أقبل هارون المكي ونعله في سبابته فقال له الإمام الصَّادق عليه السلام: ألق النعل واجلس في التنور، فألقى النعل وجلس في التنور وأقبل الإمام يحدث الخراساني بحديث خراسان حَتَّى كأنَّهُ شاهدٌ لها، ثمَّ قال: قم يا خراساني وانظر ما في التنور فقام الخراساني إلى التنور فشاهده متربعاً، فقال له الإمام عليه السلام: كم تجد بخراسان مثل هذا فقال: والله ولا واحداً فقال: أمَّا إنَّا لا نخرج في زمان لا نجد فيه خمسة معاضدين لنا نحن أعلم بالوقت». انتهى ملخصاً.

ويؤيد ما ذكرنا من الحكمتين في الابتلاء أي تبيِّن حال الممتحن للغير ولنفسه، ما رواه في المجمع في تفسير الآية ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ عن أمير المؤمنين والإمام الصَّادق عليهما السلام أنَّهما قرأ بضم الياء وكسر اللام فيهما من الأعلام أي «ليعرفنهم النَّاس».

وعن الإمام علي عليه السلام: «في تقلُّب الأحوال علم جواهر الرِّجال».

ومن أهم الأشياء الَّتي يُبتلى بها الإنسان لإظهار حقيقة هي الأمور التالية:

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا تنظروا إلى كثرة صلاتهم وصومهم،

وكثرة الحج والمعروف وطنطنتهم بالليل ولكن انظروا إلى صدق الحديث وأداء الإمامة».

وعن الإمام علي عليه السلام: «الولايات مضامير الرِّجال».

وعن الإمام الصَّادق عليه السلام: «امتحنوا شيعتنا عند ثلاث: عند مواقيت الصَّلاة كيف محافظتهم عليها، وعند أسرارهم كيف حفظهم لها عند عدونا، وإلى أموالهم كيف مواساتهم لإخوانهم».

حكمة ابتلاء الأولياء:

إنَّ الله تعالىٰ يبتلي عباده المؤمنين المخلصين أكثر مِمَّا يبتلي غيرهم، وليس ذلك امتهاناً بهم إذ «إنَّ الله تعالىٰ لم يجعل الدُّنيا ثواباً للمؤمنين ولا عقوبة لكافر» وإنَّما لمصالح عديدة منها:

١ ـ إيصالهم إلى المقامات العالية، فإنَّ الأجر على قدر المشقَّة، وكما مرَّ في الحديث، «إنَّ لك درجة لن تنالها إلاَّ بالشهادة».

عن عليّ بن رئاب قال: «سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ قال: أرأيت ما أصاب علياً وأهل بيته هو بما كسبت أيديهم؟ وهم أهل الطهارة معصومون! قال: إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يتوب إلى الله، ويستغفره في كُلِّ يوم وليله مئة مرَّة من غير ذنب، إنَّ الله يخصُّ أولياءه بالمصائب ليأجرهم عليها من غير ذنب. قال الإمام الصَّادق عليه السلام: لمَّا أُدخل عليُّ بن الحسين عليهما السلام على يزيد نظر إليه ثُمَّ قال: يا عليُّ بن الحسين ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ

﴿أَيْدِيكُمْ﴾ فقال عليُّ بن الحسين عليه السلام كلاً ما فينا هذه نزلت، وإنَّما نزلت فينا ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ﴾فنحن الَّذين لا نأسى على ما فاتنا من أمر الدُّنيا، ولا نفرح بما أُوتينا»[١].

قال حمران للإمام الباقر عليه السلام: «جُعلت فداك أرأيت ما كان من أمر قيام عليّ بن أبي طالب والحسن والحسين عليهم السلام وخروجهم وقيامهم بدين الله عزَّ ذكره وما أُصيبوا من قتل الطواغيت إيَّاهم والظفر بهم حَتَّى قتلوا وغلبوا؟ فقال أبو جعفر عليه السلام: يا حمران إنَّ الله تبارك وتعالىٰ قد كان قدَّر ذلك عليهم وقضاه وأمضاه وحتمه على سبيل الاختيار ثُمَّ أجراه فبتقدُّم علم إليهم من رسول الله صلى الله عليه وآله قام عليٌّ والحسن والحسين عليهم السلام، وبعلم صمت من صمت مِنَّا، ولو أنَّهم يا حمران حيث نزل بهم ما نزل من أمر الله عزَّ وجلَّ وإظهار الطواغيت عليهم سألوا الله عزَّ وجلَّ أن يدفع عنهم ذلك وألحُّوا عليه في طلب إزالة ملك الطواغيت وذهاب ملكهم إذاً لأجابهم ودفع ذلك عنهم، ثمَّ كان انقضاء مدَّة الطواغيت وذهاب ملكهم أسرع من سلك منظوم انقطع فتبدَّد، وما كان ذلك الَّذي أصابهم يا حمران لذنب اقترفوه ولا لعقوبة خالفوا الله فيها ولكن لمنازل وكرامة من الله عزَّ وجلَّ، أراد أن يبلغوها، فلا تذهبنَّ بك المذاهب فيهم»[٢].

كما أنَّه قد يُجمع بين مقامات الآخرة ونعم الدُّنيا، كما جُمع

---

(١) تزكية النَّفس: ص٣٣٨.

(٢) أصول الكافي: ج١، ص٢٦٢.

ليوسف عليه السلام بين السلطنة الدنيوية والمثوبات الأخروية، قال الله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ (سورة يوسف: الآيتان: ٥٦ ـ ٥٧).

٢ ـ إكرامهم وصيانتهم عن الاشتغال بالدُّنيا والتنعم بطيِّباتها، فلو فُتحت لهم أبواب الدُّنيا «لاشتغلوا بنعيمها ولابتعدوا عن الله تعالىٰ وقد ورد في المسيح عليه السلام عن الإمام علي عليه السلام أنَّه قال: «لم تكن له زوجة تفتنه، ولا ولد يحزنه، ولا مال يلفته»[1].

٣ ـ حَتَّى يتأسىٰ بهم النَّاس وتهون عليهم الخطوب والرزايا فإنَّ النَّاس إذا رأوا البلاء الَّذي حلَّ على الأنبياء والأولياء عليهم السلام من تشريد وإهانة وظلم وقتل وغير ذلك، صغر في أعينهم ما يشعرون به، ولذا ذكر الله تعالىٰ أنَّه: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾.

وإلى هذا يشير الشاعر في مصائب الإمام الحسين عليه السلام:

أنست رزيتكم رزايانا الَّتي سلفت وهوَّنت الرزايا الآتية

وفي الرواية عن الإمام الصَّادق عليه السلام أنَّهُ قال: «يؤتى بالمرأة يوم القيامة الَّتي قد افتتنت في حسنها، فيقول يا رب حسَّنت خلقي حَتَّى لقيت ما لقيت فيجاء بمريم فيُقال: أنت أحسن أم هذه؟ قد حسَّناها فلم تفتتن، ويجاء بالرجل الحسن الَّذي قد افتتن في حسنه، فيقول: يا رب قد حسَّنت خلقي حَتَّى لقيت من النِّساء ما لقيت،

---

(١) نهج البلاغة: خطبة ١٦٠.

فيجاء بيوسف عليه السلام، فيُقال: أنت أحسن أم هذا؟ قد حسَّناه فلم يفتتن، ويجاء بصاحب البلاء الَّذي قد أصابته الفتنة في بلائه، فيقول: يا رب، شددت عليَّ البلاء حَتَّى افتننت فيجاء بأيوب، فيُقال: أبليتك أشد أم بلية هذا؟ فقد ابتلى ولم يفتتن»[1].

وقد ذكر القرآن الكريم أنَّ الله تعالىٰ اختار الأئمَّة عليهم السلام بعد امتحانهم وصبرهم فقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (سورة السجدة: الآية: ٢٤).

وعن الإمام علي عليه السلام في جوابه لليهودي الَّذي سأله: كم يمتحن الله الأوصياء في حياة الأنبياء؟ وكم يمتحنهم بعد وفاتهم من مرَّة؟ إنَّه قال: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ يمتحن الأوصياء في حياة الأنبياء في سبعة مواطن ليبتلى طاعتهم، فإذا رضي طاعتهم ومحنتهم أمر الأنبياء أن يتخذوهم أولياء في حياتهم وأوصياء بعد وفاتهم، ويصير طاعة الأوصياء في أعناق الأُمم مِمَّن يقول بطاعة الأنبياء، ثمَّ يمتحن الأوصياء بعد وفاة الأنبياء عليهم السلام في سبعة مواطن ليبلو صبرهم، فإذا رضي محنتهم ختم لهم بالسعادة ليلحقهم بالأنبياء وقد أكمل لهم السعادة.

ثمَّ صار الإمام عليه السلام يُعدِّد امتحان الله له في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وهي سبعة مواطن:

١ ـ أنَّه أوَّل منْ أجاب الرَّسول صلى الله عليه وآله إلى الإيمان.

٢ ـ أنَّه بات على فراشه ليلة الهجرة.

---

(١) ميزان الحكمة: مادة «الفتنة».

٣ ـ أنَّه قتل أكثر المشركين في بدر وهو حدث السّن.

٤ ـ أنَّه بقي صامداً يدافع عن رسول الله في معركة أُحد.

٥ ـ أنَّه حارب عمرو بن ودًّ العامري وقتله في الوقت الَّذي جبن فيه غيره.

٦ ـ أنَّه قتل مرحب وفتح حصن خيبر.

٧ ـ أنَّه بلَّغ سورة براءة للمشركين.

ثمَّ عدَّد امتحان الله له بعد وفاة رسول الله وهي سبعة مواطن:

١ ـ صبر على وفاة رسول الله ﷺ واشتغل بتجهيزه في الوقت الَّذي جزع غيره.

٢ ـ صبر على ما جرى عليه من اقصائه عن حقِّه من الخلافة.

٣ ـ صبر عن المطالبة بحقِّه من الخلافة.

٤ ـ صبر على الشورى الَّتي جعلها الخليفة الثاني «وكفى بالصبر على هذا صبراً».

٥ ـ صبر على ما أصابه من وقعة الجمل.

٦ ـ صبر في معركة صفين وقضية التحكيم.

٧ ـ صبر على قتال الخوارج[1].

٤ ـ ابتلاء المتكبِّرين وأرباب الدُّنيا بهم: إذ لو وسَّع الله عليهم أرزاقهم، فاتّسعوا في القنيات الدنيويَّة من الكنوز والقناطير المقنطرة من الذهب والفضَّة والخيل المسوَّمة والأنعام والحرث، لكانت طاعة

(١) لاحظ: «الخصال»، ص٣٦٥.

النَّاس لهم أسرع، والانقياد إليهم أقرب، كما قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه في خطبته القاصعة: «فإنَّ الله سبحانه يختبر عباده المستكبرين في أنفسهم بأوليائه المستضعفين في أعينهم، ولقد دخل موسىٰ بن عمران ومعه أخوه عليهما السلام على فرعون، وعليهما مدارع الصوف وبأيديهم العصيّ، فشرطا له إن أسلم بقاء ملكه ودوام عزِّه، فقال: ألا تعجبون من هذين؟ يشترطان لي دوام العزّ وبقاء الملك، وهما بما ترون من حال الفقر والذلّ، فهلاَّ أُلقي عليهما أساور من ذهب؟ إعظاماً للذهب وجمعه، واحتقاراً للصوف ولبسه، ولو أراد الله سبحانه بأنبيائه حيث بعثهم أن يفتح لهم كنوز الذهبان ومعادن العقبان ومغارس الجنان، وأن يحشر معهم طير السَّماء ووحوش الأرضين لفعل، ولو فعل لسقط البلاء وبطل الجزاء، واضمحلت الأنبياء، ولما وجب للقالين أجور المبتلين، ولا استحق المؤمنون ثواب المحسنين»[1].

وعنه عليه السلام: «ولو أراد الله أن يخلق آدم من نور يخطف الأبصار ضياؤه لفعل ولو فعل لظلت له الأعناق خاضعة، ولخفت البلوى على الملائكة، ولكن الله ابتلى خلقه ببعض ما يجهلون أصله تميزاً بالاختيار لهم».

٥ ـ يقول الحديث الشَّريف عن ابتلاء الله لأيوب عليه السلام: «وإنَّما ابتلاه الله بالبلاء العظيم الَّذي يهون معه على جميع النَّاس لئلا يدعوا له الربوبية إذا شاهدوا ما أراد الله أن يوصله إليه من

(١) رياض السالكين: ج٤، ص٣١٤.

عظائم نعمه متى شاهدوه، وليستدلوا بذلك على أنَّ الثواب من الله على ضربين: استحقاق واختصاص، ولئلا يحتقروا ضعيفاً لضعفه، ولا فقيراً لفقره، ولا مريضاً لمرضه، وليعلموا أنَّه يسقم منْ يشاء ويشفي منْ يشاء متى شاء كيف شاء بأيِّ سبب شاء، ويجعل ذلك عبرة لمنْ شاء، وشفاؤه لمنْ شاء وسعادة لمنْ يشاء، وهو في جميع ذلك عدل في قضائه وحكيم في أفعاله لا يفعل بعباده إلاَّ الأصلح لهم ولا قُوَّة إلاَّ به»[1].

وفي حديث الإمام الصَّادق عليه السلام في جواب منْ استبعد تسلّط قاتل الإمام الحسين عليه السلام أنَّهُ قال: «ولو جعلهم ـ أي الأنبياء ـ في جميع أحوالهم غالبين وقاهرين ولم يبتلهم بما يمتحنهم لاتخذهم النَّاس آلهة»[2].

ولنختم هذا الفصل بما ورد عن الإمام علي عليه السلام أنَّهُ قال: «إنَّ البلاء للظالم أدب، وللمؤمن امتحان، وللأنبياء درجة، وللأولياء كرامة»[3].

ولنضرب مثالاً لتطبيق هذا الحديث وهو:

إنَّ الَّذي يدرِّب كتيبة من الجيش يعاملهم بأشكال متنوعة فمنهم من يُعذَّب في التدريب كي يتأدب، ومنهم من يُبلى أكثر كي يرتفع درجة أكثر، وهكذا...

---

(١) دار السَّلام: ج٤، ص١٧٧.

(٢) دار السَّلام: ج٤، ص١٧٧.

(٣) تزكية النَّفس: ص٢٣٧.

كيف تواجه الابتلاء؟

يختلف النَّاس في موقفهم تجاه الابتلاء:

فمنهم: منْ تحصل له حالة اليأس والجزع عند الابتلاء بالضرَّاء، وحالة النسيان عند الابتلاء بالسرَّاء، وهم القسم الغالب من النَّاس، وإلى ذلك يشير القرآن الكريم بقوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١﴾ (سورة هود: الآيات: ٩ ـ ١١)، وقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ (سورة العلق: الآيتان: ٦ ـ ٧)، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١﴾ (سورة المعارج: الآيات: ١٩ ـ ٢١).

وعن الإمام الحسين عليه السلام أنَّهُ قال: «النَّاس عبيد الدُّنيا، والدِّين لعق على ألسنتهم، يحوطونه ما درَّت معايشهم فإذا مُحِّصوا بالبلاء قلَّ الديانون»[1].

(١) مقتل الإمام الحسين عليه السلام، للمُقرّم.

ومنهم: منْ يرى في الابتلاء امتحان ربَّاني فيصبرون على السرَّاء ويشكرون في الرخاء وهم المؤمنون حقّاً، المكرمون عند الله تعالىٰ، فإنَّه «عند الامتحان يُكرم المرء أو يُهان».

والناجحون في الامتحان هم الَّذين ينالون أعلى المراتب في الآخرة.

فعن الإمام الصَّادق عليه السلام: «ما أثنى الله على عبد من عباده من لدن آدم إلى محمَّد صلى الله عليه وآله إلاَّ بعد ابتلائه ووفاء حق العبودية فيه، فكرامات الله في الحقيقة نهايات بداياتها البلاء».

وعنه عليه السلام: «اعلم أنَّ بلاياه محشوه بكراماته الأبدية، ومحنه مورثة رضاه وقربه ولو بعد حين»[1].

وللوصول إلى هذه الحالة لا بُدَّ من أُمور:

وعي البلاء:

إنَّ لوعي البلاء دور كبير في مواجهته والصبر عليه وهو المُعبِّر عنه بـ«البصيرة».

فعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «منْ يعرف البلاء يصبر عليه ومنْ لا يعرف ينكره».

وعن الإمام علي عليه السلام: «الحكماء أشرف النَّاس أنفساً، وأكثرهم صبراً، وأسرعهم عفواً»[2].

---

(١) ميزان الحكمة.

(٢) الصبر في الإسلام: ص١٦٢.

ولنأخذ تشبيه بسيط: إذا دفعك إنسان فجأة وبقُوَّة فإنَّهُ يفقدك توازنك وقد تقع على الأرض، ولكنَّك إذا كنت واعياً ملتفتاً فإنَّك في أثناء وقوعك تعتمد على ذراعيك أو تقوم بحركة معينة تساعدك على الوقاية من السقوط، وهكذا الحال في البلاء، فإنَّ الإنسان يتلقاه بروح إيجابية إذا كان واعياً له موطناً نفسه عليه.

فمنْ يعرف أهمية البلاء ودوره في التطهير من الذُّنُوب وارتقاء الدرجات العالية وغير ذلك من الفوائد الَّتي تقدَّمت، فإنَّه سيستقبله بالبشرىٰ والشكر لله تعالىٰ.

كما أنَّ منْ يعرف أنَّ الله تعالىٰ لا يفعل بعبده إلاَّ ما هو خير فإنَّهُ سيستقبل البلاء برحابة صدر.

عن الإمام الصَّادق عليه السلام: «أوحى الله إلى موسى بن عمران: ما خلقت خلقاً أحبَّ إليَّ من عبدي المؤمن، إنِّي إنَّما ابتليته لما هو خير له، وأُزري عنه لما هو خير له، وأعطيه لما هو خير له، وأنا أعلم بما يصلح عليه حال عبدي المؤمن، فليرض بقضائي، وليشكر نعمائي، وليصبر على بلائي، أكتبه في الصدِّيقين إذا عمل برضائي وأطاع لأمري»[1].

عن أبي جعفر عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قال الله عزَّ وجلَّ: «إنَّ من عبادي المؤمنين عباداً لا يصلح لهم أمر دينهم إلاَّ بالغنى والسعة والصحَّة في البدن، فأبلوهم بالغنى والسعة وصحة البدن، فيصلح عليهم أمر دينهم. وإنَّ من عبادي المؤمنين لعباداً لا

(١) التمحيص: ص٤٢٣.

يصلح لهم أمر دينهم إلاَّ بالفاقة والمسكنة والسقم في أبدانهم، فأبلوهم بالفاقة والمسكنة والسقم، فيصلح عليهم أمر دينهم. وأنا أعلم بما يصلح عليه أمر دين عبادي المؤمنين، وإنَّ من عبادي المؤمنين لمنْ يجتهد في عبادتي، فيقوم من رقاده ولذيذ وساده، فيتهجَّد لي اللَّيالي، فيتعب نفسه في عبادتي، فأضربه بالنعاس الليلة والليلتين؛ نظراً منِّي له وإبقاءً عليه، فينام حَتَّى يصبح، فيقوم وهو ماقت لنفسه زارىء عليها، ولو أُخلِّي بينه وبين ما يريد من عبادتي لدخله العجب من ذلك، فيصيِّره العجب إلى الفتنة بأعماله، فيأتيه من ذلك ما فيه هلاكه؛ لعجبه بأعماله، ورضاه عن نفسه حَتَّى يظنُّ أنَّهُ قد فاق العابدين، وجاز في عبادته حدَّ التقصير، فيتباعد منِّي عند ذلك وهو يظنُّ أنَّهُ يتقرَّب إليّ، فلا يتَّكل العاملون على أعمالهم الَّتي يعملونها لثوابي، فإنَّهم لو اجتهدوا، وأتعبوا أنفسهم، وأفنوا أعمارهم في عبادتي، كانوا مقصِّرين غير بالغين في عبادتهم كنه عبادتي فيما يطلبون عندي من كرامتي، والنعيم في جنَّاتي، ورفيع درجاتي العلىٰ في جواري، ولكن فبرحمتي فليثقوا، وبفضلي فليفرحوا، وإلى حسن الظنّ بي فليطمئنوا، فإنَّ رحمتي عند ذلك تداركهم، ومَنِّي يبلِّغهم رضواني، ومغفرتي تلبسهم عفوي، فإنِّي أنا الله الرَّحمٰن الرَّحيم وبذلك تسمّيت»[1].

كما أنَّ ومن يعرف حقيقة الدُّنيا وما طُبعت عليه من الأكدار والأحزان لا يحزن لها فإنَّها:

طُبعت على كدر وأنت تريدها   صفواً من الأكدار والأقذار

---

(١) تزكية النَّفس: ص٣٥٣.

عن محمَّد بن عجلان قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فشكا إليه رجل الحاجة فقال عليه السلام: «إصبر. إنَّ الله سيجعل لك فرجاً، ثمَّ سكت ساعة، ثمَّ أقبل على الرجل فقال: أخبرني عن سجن الكوفة كيف هو؟ فقال: أصلحك الله فيه أصحاب بأسوأ حال، فقال عليه السلام: إنَّما أنت في سجن تريد أن تكون في سعة؟ أما علمت أنَّ الدُّنيا سجن المؤمن»[1].

وعن الإمام علي عليه السلام في وصيته لولده الحسن عليه السلام: «واعلم يا بني إنَّ الدَّهر، ذو صرف، فلا تكن مِمَّن يشتد لائمته ويقلّ عند النَّاس عذره».

وعنه عليه السلام: «الدَّهر يومان: فيوم لك ويوم عليك فإن كان لك فلا تبطر، وإذا كان عليك فلا تحزن فبكليهما ستُختبر»[2].

روى أنَّ الإمام محمَّد الباقر عليه السلام رأى جابر بن عبد الله الأنصاري وقد تنفس الصعداء.

فقال: يا جابر، علام تنفسك؟ أعلى الدُّنيا؟

فقال: جابر: نعم.

فقال له: يا جابر، ملاذ الدُّنيا سبعة: المأكول، والمشروب، والملبوس، والمنكوح، والمركوب، والمشموم، والمسموع.

فألذّ المأكولات: العسل وهو بصق من ذبابة. وأحلى

(١) التمحيص: ص٤١٦.

(٢) ميزان الحكمة.

المشروبات الماء، وكفى بإباحته وسباحته على وجه الأرض. وأعلى الملبوس الديباج وهو من لعاب دودة، وأعلى المنكوحات النِّساء وهو مبال في مبال ومثال لمثال، وإنَّما يُراد أحسن ما في المرأة لأقبح ما فيها، وأعلى المركوبات الخيل وهو قواتل، وأجلُّ المشمومات المسك وهو دم من سرة دابة، وأجلُّ المسموعات الغناء والترنم وهو إثم. فما هذه صفته لم يتنفس عليه عاقل.

قال جابر: فوالله ما خطرت الدُّنيا بعدها على قلبي».

اللجوء إلى الله تعالىٰ:

إنَّ الالتجاء إلى الله تعالىٰ خلاص للإنسان من كل بلاء ففي دعاء للإمام علي عليه السلام يقول فيه: «إن أوحشتهم الغربة آنسهم ذكرك، وإن صُبَّت عليهم المصائب لجأوا إلى الاستجارة بك»[1].

وعن الإمام الصَّادق عليه السلام: «ما يمنع أحدكم إذا دخل عليه غمّ من غموم الدُّنيا أن يتوضأ ثمَّ يدخل مسجده فيركع ركعتين فيدعو الله فيها أما سمعت الله يقول: «استعينوا بالصَّبر والصَّلاة»[2].

إنَّ اللجوء إلى الله تعالىٰ والالتفات بأنَّهُ يعلم بما يجري على الإنسان هو عامل مهم في تحمُّل البلاء كما قال إبراهيم الخليل عليه السلام عندما أُلقي في النَّار «علمه بحالي يغنيه عن سؤالي».

وخذ لذلك مثلاً:

---

(١) نهج البلاغة: دعاء رقم ٢٢٧.

(٢) الأخلاق: ج٢، ص٨٠.

فالمتسابقون في ساحة الألعاب يشعرون بالاندفاع والارتياح عندما يعلمون أنَّهم في معرض أنظار أصدقائهم المتفرجين، فما بالك بمنْ يؤمن أنَّ الله تعالىٰ هو الَّذي يراه ويعلم بحاله ولذا قال الإمام الحسين عليه السلام وهو في أشدَّ أنواع المحن والبلايا: «هوّن عليَّ ما نزل بي أنَّه بعين الله»[1].

وحين واجه نوح عليه السلام أعظم المصائب من قومه وصار الخلاص، جاءه النداء الإلٰهي: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ (سورة هود: الآية: ٣٧).

وإذا علم الإنسان أنَّ الله تعالىٰ هو منزل البلاء ورافعه فإنَّهُ يتوجه إلى الله تعالىٰ فقط.

قالت ابنة آية الله الطالقاني: «لمَّا كنت في السجن وكنت أدرس التفسير عند والدي بيّن لي ذات مرَّة مراتب الشِّرك بالله ومنها: إذا تمنيت في قلبي أن يفرِّج عنِّي ضابط السجن فهذه درجة خفيَّة من أنواع الشِّرك، إنَّ المؤمن حقّاً يجب أن يفقد الأمل عن كُلِّ شيء ما سوى الله تعالىٰ».

تذكُّر رحمة اللَّه عند وقوع البلاء:

أحياناً يغفل الإنسان عن ربِّه عند نزول البلاء ـ خصوصاً إذا كان البلاء عظيماً ـ وفي هذه الحالة لا بُدَّ أن يتذكر الرَّحمة الإلٰهيَّة وأنَّ ألطاف الله تعالىٰ لا تُعدَّ ولا تُحصىٰ، وأنَّ الله يغيِّر الأُمور من حالٍ إلى حال، وكم من مُبتلىٰ عند الصباح ومعافىً في المساء، وكم من محنة تنفرج عن الإنسان من حيث لا يدري.

---

(١) الأمثل: ج١، ص٣٩١.

عن الإمام علي عليه السلام: «كن لما لا ترجو أرجى منك لما ترجو، فإنَّ موسى بن عمران خرج يقتبس لأهله ناراً فكلَّمه الله ورجع نبيّاً».

لقد كُنَّا لا شيء ثمَّ خلقنا الله تعالىٰ، وكُنَّا صغاراً ضعفاء فأصبحنا كباراً وأقوياء، فلماذا لا نذكر رحمة الله تعالىٰ الَّتي تشملنا في كُلِّ لحظة.

عن كافور الخادم قال: كان في الموضع المجاور للإمام الصادق عليه السلام من أهل الصنائع صنوف من النَّاس، وكان الموضع كالقرية وأنَّ يونس النقَّاش كان يغشىٰ سيِّدنا الإمام عليه السلام ويخدمه.

فجاءه يوماً يرعد فقال: يا سيِّدي أوصيك بأهلي خيراً، قال عليه السلام: وما الخبر؟ قال: عزمت على الرحيل قال عليه السلام: ولِمَ يا يونس؟ وهو عليه السلام متبسِّم قال: بعث إليَّ موسى بن بغا بفصّ ليس له قيمة، أقبلت أن أنقشه فكسرته باثنين، وموعده غداً، وهو موسى بن بغا إمَّا ألف سوط أو القتل، قال عليه السلام: امضِ إلى منزلك إلى غد فما يكون إلاَّ خيراً.

فلمَّا كان من الغد وافىٰ بكرة يرعد فقال: قد جاء الرَّسول يلتمس الفصَّ قال عليه السلام: امضِ إليه فما ترى إلاَّ خيراً قال: وما أقول له يا سيِّدي؟ فتبسَّم عليه السلام وقال: امضِ إليه واسمع ما يخبرك به، فلن يكون إلاَّ خيراً.

قال: فمضى وعاد يضحك فقال: قال لي يا سيِّدي: الجواري اختصمن، فيمكنك أن تجعله فصّين، حَتَّى نغنيك؟ فقال سيِّدنا

الإمام ﷺ: اللّهمَّ لك الحمد إذ جعلتنا مِمَّن يحمدك حقّاً فأيش[1] قلت له؟ قال: قلت له: أمهلني حَتَّى أتأمّل أمره كيف أعمله؟ فقال: أصبت.

ومِمّا يُنسب للإمام علي عليه السلام:

وكم لله من لطف خفي يدق خفاه عن فهم الذكي
وكم يُسرٍ أتىٰ من بعد عُسرٍ وفرج كُربة القلب الشجي
وكم أمرٍ تُساء به صباحاً وتأتيك المسرَّة بالعشي
إذا ضاقت بك الأحوال يوماً فثق بالواحد الفرد العلي

قيل: إنَّ قراءة هذه الأبيات يؤثر في رفع حالات الضيق والعُسر.

ويُحكى أنَّ رجلاً أُخذ للمشنقة، فقيل له: إنَّ لك حاجة مقضية قبل موتك فاطلب ما تريد فقال: أُريد أن تنقلوني إلى المشنقة الثانية وكان بينهما مسافة، وبينما هم في الطّريق وإذا بالخبر يأتي بأنَّ الحاكم قد مات وأُلغي حكم الإعدام، فسُئل الرجل عن سبب طلبه فقال: لأنّي أعلم أنَّ الله تعالىٰ في كُلِّ لحظة ثلاثمائة وستين رحمة، فقلت في نفسي: لعلَّ رحمة من رحماته تشملني بين هذه المشنقة وتلك.

الرجاء وعدم اليأس:

لا بُدَّ لصاحب البلاء أن يعيش الأمل بالله تعالىٰ في حلّ مشاكله وإلاّ يعيش اليأس فـ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ (سورة يوسف: الآية: ٨٧).

(١) لغة عامية وكأنَّهُ مخفّف: «أي شيء».

فإنَّه مهما طال البلاء فلا بُدَّ وأن ينتهي إلى وقت محدود.

كتب يحيى بن خالد ـ من الحبس ـ إلى هارون العبَّاسي:

كُلَّما مرَّ من سروركِ يوم ... مرَّ في الحبس من بلائي يوم
ما لنعمى ولا لبؤسى دوام ... لم يدم في النعيم والبؤس قوم

وقد أعطانا النبي يعقوب عليه السلام درساً عظيماً في الأمل بالله تعالىٰ حيث أنَّه ومع طول فراقه ليوسف عليه السلام إلاَّ أنَّه كان يأمل من الله أن يرجعه إليه وقال لأولاده ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ (سورة يوسف: الآية: ٨٧).

ومِمَّا يُنسب للإمام الصَّادق عليه السلام:

فلا تجزع وإن أُعسرت يوماً ... فقد أيسرت في الدَّهر الطويل
فإنَّ العسر يتبعه يسار ... وقول اللَّه أصدق كل قيل
فلا تيأس فإنَّ اليأس كفر ... لعلَّ اللَّه يغني عن قليل
فلا تظنَّنْ بربِّكَ ظنَّ سوء ... فإنَّ اللَّه أوفىٰ بالجميل
فلو إنَّ العقول تسوق رزقاً ... لكان المال عند ذوي العقول
توقع صنع ربِّكَ سوف يأتي ... بما تهواه من فرج قريب
ولا تيأس إذا ما ناب خطب ... فكم في الغيب من عجب عجيب[(١)]

علاج اليأس في الأُمور المادية الدنيويَّة:

١ ـ قدرة اللَّه:

أن يفكر بأنَّ قضاء حوائج جميع الخلق سهل يسير أمام قدرة الخالق اللامتناهية، فالله القادر الَّذي يدير الكرة الأرضية بسعتها،

---

(١) الذُّنوب الكبيرة: ج١، ص١٠٧.

وسائر الكرات السَّماويَّة مع عظمتها، وبنظم معين، وفي كُلِّ واحدة منها يوجد من آثار العظمة والقدرة ما يحيِّر العقول، هل هو عاجز عن تحقيق حاجة جزئية لعبده؟

٢ ـ التجارب الشخصية:

أن يتفكَّر في معاملة الله معه، فالله القادر الَّذي حفظ الإنسان في ظلمات ثلاث(المشيمة، والرحم، وبطن الأُم) وأخرجه إلى هذا العالم، ولم يغفل لحظة واحدة عن حاله، وفي كُلِّ وقت يهيىء له ما يلزم من دون سؤال منه، وكم خطرٍ أنجاه منه، وكم مرضٍ عافاه منه، وكم مشكلة يسَّرها له، فهل أصبح بعد ذلك عاجزاً، أم بخيلاً، أم جاهلاً بحالنا؟

٣ ـ النماذج الخارجية:

ليلاحظ حالات أولئك الَّذين ابتلوا بمثل بلائه، ولم ييأسوا من الربِّ الكريم، وحلَّ الله تعالىٰ مشكلتهم، وداوى آلامهم، وقضى حاجتهم، بل ما أكثر المبتلين الَّذين أغاثهم الله من دون أن يسألوا. فمثلاً إذا كان يائساً من الأولاد فلينظر إلى الأشخاص الَّذين رزقهم الله أولاداً وهم في سن الشيخوخة وأواخر العمر.

إنَّ إبراهيم عليه السلام عمره ١١٢ إلى ١٢٠ عاماً، وكان عمر زوجته ٩٠ أو ٩٩ عاماً، ولم يكن له ولد، ولكنَّ الله تعالىٰ أرسل الملائكة فبشَّروا إبراهيم كما في قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾ (سورة الذاريات:

الآيتان: ٢٨ ـ ٣٠). ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ﴾ (سورة هود: الآية: ٧٣).

زكريا وابنه يحيى:

وهكذا النبي زكريًا عليه السلام الَّذي كان عمره على أشهر الرِّوايات ٩٩ عاماً، وكان سن زوجته ٩٨ عاماً، ولم يرزق منها ولداً إلاَّ أنَّهُ لم يكن يائساً من قدرة ربّ العالم ورحمته فتوسَّل إليه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ۝٤ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ۝٦﴾ (سورة مريم: الآيات: ٤ ـ ٦).

واستجابُ الله دعاءه ووهبه يحيى بتفصيل ذكرناه في كتابنا «حياة السيد المسيح عليه السلام».

يقول الشاعر:

يا صاحب الهم إنَّ الهمَّ منفرج	أبشر بخير فإنَّ الفارج اللَّه
اليأس يقطع أحياناً بصاحبه	لا تيأسنّ فإنَّ الكافي اللَّه
واذهب وثق باللَّه وارضىٰ به	إنَّ الَّذي يكشف البلوىٰ هو اللَّه
اللَّه يُحدث بعد العسر ميسرة	لا تجزعنَّ فإنَّ الصانع اللَّه
واللَّه ما لكَ غير اللَّه من أحد	حسبك اللَّه في كُلّ شيء لكَ اللَّه

ذكر اللَّه تعالىٰ:

للأذكار دور كبير في مواجهة الابتلاء، فهي وإنْ كانت كلمات تخرج من الأفواه إلاَّ أنَّ لهذه الكلمات الصوتية ذبذبات تؤثر على

[illegible] وما حوله، كما شرحنا ذلك في كتابنا «النظام الصحي» ولذلك فقد كانت الكلمات ـ وخصوصاً الدِّينيَّة منها ـ دواءً لكافة الابتلاءات.

ففي الحديث: «كانت الأنبياء إذا أحزنهم أمر فزعوا إلى الذكر»[1].

ومن تلك الأذكار:

١ ـ ترديد قول: «إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون»، قال الله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ (سورة البقرة: الآية: ١٥٦).

٢ ـ الحوقلة فعن الإمام علي عليه السلام: «قل عند كل شدة «لا حول ولا قُوَّة إلاَّ بالله العليِّ العظيم» تكفها»[2].

٣ ـ عن الإمام الرِّضا عليه السلام أنَّهُ قال: «رأيت أبي عليه السلام في المنام فقال: يا بني إذا كنت في شدة فأكثر من أن تقول: «يا رؤوف يا رحيم»[3].

٤ ـ عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «إذا اشتدَّ عليكم البلاء فلوذوا بـ«يا ذا الجلال والإكرام»[4].

٥ ـ يقول العلاَّمة اللاهيجاني رحمه الله سألت السيِّد علي القاضي قُدِّس سرُّهُ، عن الذكر الَّذي أردِّده في مواقع الاضطرار والابتلاء وعند تعسُّر الأُمور الدنيويَّة والأخرويَّة فأجاب: «صلِّ على

---

(١) مواهب الرَّحمٰن: ج١، ص٢٠٣.

(٢) ميزان الحكمة.

(٣) ميزان الحكمة.

(٤) مواهب الرَّحمٰن: ج١١، ص٥٠.

محمَّد وآل محمَّد خمس مرَّات ثمَّ إقرأ آية الكرسي مرَّة ثمَّ أكثر في قرارة نفسك من قول «اللَّهمَّ اجعلني في درعك الحصينة الَّتي تجعل فيها من تشاء»[1].

٦ ـ عن رسول الله ﷺ: «إذا وقعتم في الأمر العظيم فقولوا «حسبنا الله ونعم الوكيل»».

عن الإمام الصَّادق عليه السلام: «عجبت لمنْ خاف كيف لا يفزع إلى قوله «حسبنا الله ونعم الوكيل» فإنِّي سمعت الله يقول يعقبها «فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء»».

٧ ـ عن أبي الحسن عليه السلام: «قول «لا حول ولا قُوَّة إلاَّ بالله» يدفع أنواع البلاء».

٨ ـ عن رسول الله ﷺ: «ادفعوا أبواب البلايا بالاستغفار».

قصد أعرابي أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام فقال: إنِّي لذو محن فعلمني شيئاً انتفع به؟ فقال يا أعرابي: إنَّ للمحن أوقاتاً ولها غايات فاجتهاد العبد في محنته قبل إزالة الله تعالىٰ إيَّاها يكون زيادة فيها لقوله تعالىٰ: ﴿... قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (سورة الزمر: الآية: ٣٨)، لكن استعن بالله واصبر، وأكثر من الاستغفار، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ وعد الصابرين خيراً كثيراً وقال: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾﴾ (سورة نوح: الآيتان: ١٠ ـ ١١). فانصرف الرجل فقال أمير المؤمنين عليه السلام:

---

(١) معرفة المعاد: ج٧، ص١٧٨.

«إذا لم يكن عون من الله للفتى فأكثر ما يجني عليه اجتهاده»

٩ ـ كلمات الفرج.

روي أنَّ عبد الملك بن مروان كتب إلى عامله بالمدينة هشام بن إسماعيل: إنَّ الحسن بن الحسن قد كاتب أهل العراق، فإذا جاءك كتابي فابعث إليه الشرطة فليأتوا به. قال: فأتوا به فشغله عنه شيء، فقام إليه الإمام علي بن الحسين وقال له: يا ابن العم قل كلمات الفرج يفرِّج الله عنك وهي: «لاَ إِلٰهَ إلاَّ الله الحليم الكريم، لاَ إِلٰهَ إلاَّ الله العليُّ العظيم، سُبْحان الله ربُّ السَّمٰوات السبع، وربُّ الأرضين السبع، وما فيهنَّ وما بينهنَّ، وربُّ العرش العظيم، والحمد لله ربُّ العَالمينَ» قال: وانصرف علي بن الحسين وأقبل الحسن يكرّرها فلمَّا فرغ هشام من قراءة الكتاب ونزل قال: أرى وجهاً قد قذف بكذبة خلوا سبيله، وأنا أراجع أمير المؤمنين فيه فأخروه، وكتب إلى عبد الملك فكتب إليه فأطلقه بعد أيَّام».

عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «لما طرح إخوة يوسف يوسف في الجبِّ، دخل عليه جبرئيل وهو في الجبِّ فقال: يا غلام، منْ طرحك في هذا الجبِّ؟ قال له يوسف «إخوتي، لمنزلتي من أبي، حسدوني، ولذلك في الجبِّ طرحوني، قال: فتحب أن تخرج منها؟ فقال له يوسف: ذاك إلى إلٰه إبراهيم وإسحاق ويعقوب قال: فإنَّ إلٰهَ إبراهيم وإسحاق ويعقوب يقول لك: قل: «اللَّهمَّ إنِّي أسألك فإنَّ لك الحمد لاَ إلٰهَ إلاَّ أنت الحنَّان المنَّان، بديع السَّمٰوات والأرض ذو الجلال والإكرام، صلِّ علىٰ محمَّد وآل محمَّد، واجعل لي من أمري فرجاً ومخرجاً، وارزقني من حيث

أحتسب ومن حيث لا أحتسب» فدعا ربَّه فجعل الله له من الجبِّ فرجاً ومن كيد المرأة مخرجاً، وآتاه ملك مصر من حيث لم يحتسب».

عن الريَّان قال: سمعت الإمام الرِّضا عليه السلام يدعو بكلمات فحفظتها عنه، فما دعوت بها في شدة إلاَّ فرَّج الله عنِّي وهي «اللَّهمَّ أنت ثقتي في كل كرب، وأنت رجائي في كل شدة، وأنت لي في كل أمر نزل بي ثقة وعدَّة، كم من كرب يضعف عنه الفؤاد، وتقل فيه الحيلة، وتعيى فيه الأُمور، ويخذل فيه البعيد والقريب والصديق، ويشمت فيه العدو أنزلته بك وشكوته إليك، راغباً إليك فيه عمَّن سواك، ففرَّجته وكشفته وكفيتنيه، فأنت وليُّ كل نعمة، وصاحب كل حاجة ومنتهى كل رغبة، فلك الحمد كثيراً، ولك المنُّ فاضلاً، بنعمتك تتمُّ الصالحات، يا معروفاً بالمعروف معروف، ويا من هو بالمعروف موصوف، أنلني من معروفاً تغنيني به عن معروف منْ سواك، برحمتك يا أرحم الراحمين».

١٠ ـ كلمات التوحيد في الشدائد:

عن أبي عبد الله صلوات الله عليه قال: أخبرني أبي عن جدِّي، عن النَّبي صلى الله عليه وآله عن جبرئيل عليه السلام قال: لما أخذ نمرود إبراهيم عليه السلام ليلقيه في النَّار، قلت: يا رب عبدك وخليلك ليس في أرضك أحد يعبدك غيره، قال الله تعالىٰ: هو عبدي آخذه إذا شئت، ولما أُلقي إبراهيم عليه السلام في النَّار تلقاه جبرئيل عليه السلام في الهواء، وهو يهوي إلى النَّار، فقال: يا إبراهيم، لك حاجة؟ فقال: أمَّا إليك فلا، وقال: يا الله، يا أحد يا صمد يا من لم يلد ولم يولد ولم

يكن له كفواً أحد. نجني من النّار برحمتك» فأوحى الله تعالىٰ إلى النّار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم».

١١ ـ دعاء في اللحظات الصعبة:

عن الإمام زين العابدين عليه السلام قال: ضمَّني والدي عليه السلام إلى صدره يوم قُتل والدِّماء تغلي وهو يقول: يا بني احفظ عنِّي دعاء علّمتنيه فاطمة عليها السلام، وعلّمها رسول الله ﷺ وعلمه جبرئيل عليه السلام في الحاجة والهمّ والغمّ والنازلة إذا نزلت والأمر العظيم الفادح، قال ادعُ: «بحقِّ يٰس والقرآن الحكيم، وبحقِّ طٰه والقرآن العظيم، يا منْ يقدر على حوائج السائلين، يا من يعلم ما في الضمير، يا منفس عن المكروبين، يا مفرج عن المغمومين، يا راحم الشيخ الكبير، يا رازق الطفل الصغير، يا من لا يحتاج إلى التفسير، صلِّ على محمَّد وآل محمَّد، وافعل بي كذا وكذا».

١٢ ـ قال أحد المؤمنين الصالحين:

فيما مضىٰ كنت إنساناً «خوّافاً»، يؤوساً، قليل الصبر، سيّىء الظنِّ بالنَّاس، كسولاً، منطوياً على نفسي. هذه الحالات كانت تعذِّبني وتنغِّص عليَّ أوقاتي بحيث أني كنت أدعو الله تعالىٰ أن يقرِّب أجلي.. إلىٰ حدِّ أنّي حدَّثت نفسي يوماً بالانتحار! إذ لم أعد أرىٰ لبقائي في الدُّنيا من معنى. حَتَّىٰ قيَّض الله لي أستاذاً عالماً ذا خبرة.. أخذ بيدي وأعانني.

في البداية وجهّني إلىٰ التوبة. وكانت تلك مرحلة شاقّة عليَّ؛ لأنَّ أوَّل شرط اشترطه هذا الأستاذ أن أنفِّذ أعمالاً معيَّنة بجدٍّ تامّ

بحيث لا أتوانىٰ عنها ولا يوماً واحداً. ولأنِّي قد تعوَّدت علىٰ حياة الكسل وقلَّة الصبر، فقد كان برنامج التوبة ـ خاصَّة في البدايات ـ عسيراً مرهقاً.. لكنَّ الله تعالىٰ ـ وله المنَّة والشكر ـ ألقىٰ في قلبي إيماناً وميلاً إلى الأستاذ، بحيث كان يكفيني منه ـ إذا قصَّرت في عملي ـ أن يقول لي بمحبَّة: ما كان ظنِّي أن تتساهل إلىٰ هذا الحدِّ!.. حَتَّىٰ أواصل عملي مرَّة أخرىٰ. وهكذا.. حَتَّىٰ عبرت مرحلة التوبة، وطُهرت من الخطايا والآثام السالفة. عندها قال لي الأستاذ: إذا كنت ما زلت تظنُّ أنَّ الله لم يغفر لك فقد أسأت الظنَّ بالله. وبعد هذه المغفرة الَّتي سلختُ من أجلها الأيَّام في الرياضة الرُّوحيَّة والتوبة والاستغفار.. قال لي الأستاذ:

حان الآن وقت دخولك في مرحلة الثبات، الَّتي ستكون ـ ولا ريب ـ أشقَّ عليك وأصعب. فإنْ تُرِدْ أن تصل إلىٰ الكمالات الرُّوحيَّة فلا مفرَّ إذَنْ من طيِّ هذه المرحلة وعبورها.

قلت: لقد تحقق لي ـ والحمد لله ـ نصف هذه المرحلة، خلال الأربعين يوماً الَّتي طويتها بالتوبة والاستغفار. وإذا شاء الله تعالىٰ فأنِّي أطوي ما بقي من هذه المرحلة بلطف منك.

فقال لي الأستاذ: إقرأ سورة «الكهف» كُلَّ يوم، واعلمْ أنَّ ما يبلغه المرء من المقامات فإنَّما بفضل ثباته واستقامته.

قَصَّ الله تعالىٰ علينا في سورة الكهف خبر أصحاب الكهف الَّذين مدحهم الله لثباتهم في مقابل دقيانوس (الملك الجائر الَّذي ادَّعىٰ الألوهيَّة)، فهجروا مناصبهم في الدولة، بل تركوا كُلَّ شيء.. من أجل صيانة إيمانهم وحفظ عقائدهم. فذُكروا في القرآن بلقب

«الفِتية». ومنذ الساعة الَّتي خلدوا فيها إلىٰ النوم في الكهف.. كانت عناية الله معهم تَحُوطهم وتَلْطُف بهم إلىٰ ثلاث مئة سنة كان عليهم أن يرقدوا فيها.. منسيِّين مصونين من الأخطار. وبعد يقظة قصيرة أُعيدوا إلىٰ الصَّوْن والحفظ مرَّة أخرىٰ حَتَّىٰ يكونوا بعدئذٍ من أصحاب إمام العصر (روحي فداه). وعلىٰ هذا.. فإنَّ الثبات علىٰ نهج الدِّين ينزِّل على العبد من مدد الله تعالىٰ حظّاً وفيراً عظيماً، ويجعله من أنصاره.

وفي سورة الكهف كذلك قصَّة رجُلَين، أحدهما لا ثبات له ولا مقاومة ولا قُوَّة إيمان.. دَخَل جنَّته (بستانه)، فقال مبتدئاً: ما شاء الله! لكنَّه أنكر بعدئذٍ المعاد. والآخر: رفيقهُ الَّذي عنَّفه ذامّاً انكفاءه وغياب استقامته وثباته.. ثمَّ فارقه. وبهذا الأسلوب يقول الله تعالىٰ للنَّاس إنَّ الله يكره ضعاف الإيمان، كما ينفر منهم الصالحون. وأنَّه سبحانه سيسلب من أموالهم البركات، بل أنَّه ليمحق هذه الأموال. بَيْد أنَّ أصحاب الصمود علىٰ الحقِّ والثبات ـ حَتَّىٰ لو كانوا فقراء معدمين ـ يغنيهم الله من فضله ثروةً وبركة.

ونقرأ في سورة الكهف أيضاً قصَّة موسىٰ والخضر عليهما السلام؛ إذ قَبِل الخضرُ موسىٰ تلميذاً وتابعاً، ليكون موسىٰ عليه السلام صاحب صبر علىٰ ما سيرىٰ منه. وكُلَّما كان الخضر يجد في موسىٰ قلَّة في الصبر كان يهدِّده بتركه والافتراق عنه.. ثمَّ كان عاقبة موسىٰ أنْ انفصل عنه لقلَّة ما صَبَر معه، بعد أن كشف له الخضر عليه السلام عن سرِّ الأعمال الَّتي لم يستطع موسىٰ عليها صبراً.

وفي السورة كذلك قصَّة ذي القَرْنين مفصَّلة. تحكي للبشريَّة أنَّ

الثبات والرسوخ يمكِّن الإنسان أن يفتح بلدان العالم كافَّة.. كما حَدَث لذي القَرْنين الَّذي مضىٰ قُدُماً إلىٰ الأمام ـ بهمَّته وقدرته ورسوخه في الثبات ـ حَتَّىٰ بلغ «مغرب الشَّمس» حيث المحيطات. ثمَّ أعدَّ جيشاً بلغ به المشرق، ففتح أجزاء من بلاد الصين. ولقد كان راسخاً في ثباته علىٰ أهدافه الرفيعة ـ متوكلاً ومستعيناً بالذات الإلٰهيَّة المقدَّسة ـ حَتَّى ذكره الله تعالىٰ في القرآن: كتاب البشريَّة الخالد.. نموذجاً بارزاً لمن مكَّن الله له في الأرض، وقصَّ قصَّته مفصَّلة فيه.

قال الأستاذ: وينبغي أن نستلهم من قصص سورة الكهف هذه موعظة نافعة لنا، كما قال الله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (سورة يوسف: الآية: ١١١).

وإذَنْ.. فلتقرأ سورة الكهف كُلَّ يوم، وتعلَّم من هذه السورة المباركة. واعلم أنَّ من أراد أن تتحقق له أهدافه فلا بُدَّ أن يتَّصف بالصبر والثبات.. كما تحقق لأهل الكهف الَّذين نالوا ـ بثباتهم ـ الكمال المعنوي ووصلوا إلىٰ الله جلَّ جلاله، وكما تحقق لذي القرنين الَّذي فتح العالم.

أمَّا إذا كان الإنسان ضعيفاً في الدُّنيا، فإنَّهُ لا يجني أيَّ شيء، ويُسْلَب البركة من حياته وماله ووقته.

ثمَّ قال الأستاذ: كُلَّما أحسستُ أنا بالضعف والوهن في قضايا التبليغ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأداء تكاليفي في خدمة الخلق، تَلَوتُ سورة (نوح)، وأوصيك أنت أيضاً أن تقرأ هذه

السورة المباركة كُلَّ يوم تستمدُّ منها ما يعينك في أمر الصبر والثبات، ولتنظر كيف دعا نوح عليه السلام قومه مدة تسعمائة وخمسين سنة ليلاً ونهاراً.. بالوعد والوعيد، فلم يؤمنوا له، بل كانوا يجعلون أصابعهم في آذانهم لئلاً يسمعوا دعوته إيَّاهم إلىٰ الله، وكانوا يستغشون ثيابهم لئلاً يروه، لكنَّه عليه السلام ظلَّ راسخاً حَتَّىٰ استطاع في آخر الأمر أن يجذب إلىٰ دعوته منهم قلَّة قليلة، ركبوا معه في الفُلْك، واستنقذهم من بين الَّذين لا يلدون إلاَّ فاجراً كفَّاراً.

ولقد واظبتُ سنة كاملة أقرأ هاتين السُّورتين، ولا أجترح ذنباً وأؤدِّي فرائضي علىٰ الوجه السليم ـ في أوَّل أوقاتها. وبعد هذه السنة وجدت نفسي وقد تغيَّرت عمَّا مضىٰ، إذ غدوت ثابتاً كالجبل، قد ذهبت عنِّي أمراضي الرُّوحيَّة، ولم يبق في داخلي للخوف والكسل وقلَّة الصبر من أثر، وتهيَّأت مِنْ ثَمَّ لطيِّ مراحل الكمال»[1].

يقول رجلاً آخر:

توفِّيت أُمِّي وأنا طفل صغير. فتركت فجيعتها في نفسي أثراً سلبيّاً، حَتَّىٰ أنِّي ما كنت أطيق ـ بعدها ـ أن أرىٰ أحداً من أقاربي يُصاب بِوَعْكة صحيَّة. وإذا حَدَث أن مات أحد مِمَّن أعرف فإنَّ الجزع يشتدُّ بي أكثر من أهل الميِّت أنفسهم، وأقعدُ للمناحة والبكاء. إنَّ خبراً سيئاً يطرق سمعي كان كفيلاً أن يوهنني ويعصف بي.

وقد لازمتني هذه الحالة زماناً حَتَّىٰ قصدت يوماً عالماً عسىٰ

(١) سير إلى الله: ص١٧٤.

أن يقدر علىٰ معالجة هذا المرض الرُّوحيِّ، فقال لي: إنَّما تحدث لك هذه الحالة لأنَّكَ عاطفتك فيَّاضة، سرعان ما يحترق قلبك علىٰ الآخرين، وهذه من الصفات الإنسانيَّة الحميدة، فلا ينبغي أن تقلق.

بَيْد أنِّي أدركت أنَّ هذا العالِم لم يشخِّص الداء الَّذي أوشك أن يقضي عليَّ، ولهذا خرجت من لدن هذا العالم لا يقرُّ لي قرار، إذ لم يعد في وسعي أن أتحمَّل أصغر خطب يحلُّ بي.

وهذا دعاني أن أمضي إلى أستاذ ـ وما يزال أستاذي حَتَّىٰ الآن ـ استفدت منه كثيراً. قال لي: حالتك هذه هي أثر من آثار الصَّدمة العاطفيَّة الَّتي تلقَّيتها في طفولتك علىٰ أثر موت أُمّك. ولسوف تخرج بإذن الله، من هذه الحالة ـ إذا عملت بما أوصيك ـ إلىٰ حالة التوازن العاطفيِّ، شكرته على ما أبدىٰ لي وتعهَّدت أن أعمل بوصاياه. قال الأستاذ:

أولاً: أن تكثر في ليلك ونهارك من ذِكر: «يا صابر» (ألف مرَّة يوميّاً في الأقلّ) الَّذي هو من الأسماء الإلٰهيَّة، ولسوف يَرْفِدك هذا الاسم المقدَّس لتواجه مصائب الدُّنيا بصبرٍ وثبات.

ثانياً: أن تدمن قراءة الآية الكريمة:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ (سورة البقرة: الآيتان: ١٥٥ ـ ١٥٦).

على أن تتدبَّر بدقَّة في معنى هذه الآية، فإنَّ هذا التدبُّر يزيد من قدرة الإنسان على الصبر إزاء المصائب والكُروب.

وغير هذا، عليك أن توحي إلى نفسك كُلَّ يوم، بل في كُلِّ وقت، معاني من مثل: لا بُدَّ أن أكون في مقابل كافة البلايا ثابتاً كالجبل، فلا تهزّني أيّة بليّة.

قُلْ لنفسك: إنّي لَقوِيٌّ. ما الَّذي ينقصني عن عظماء رجال التاريخ الَّذين تحمَّلوا المصائب والصِّعاب ووصلوا إلىٰ الكمال الإنسانيّ وإلىٰ مراقي العظمة؟!

لو أنَّ مريم ابنة عمران عليها السلام لم تواجه كبرىٰ مصائبها (وهي أن تحمل ـ وهي فتاة عذراء ـ بدون زواج، فيرميها قومها بفاحشة (الزِّنا) بالتحمُّل والصبر، وكانت لجأت ـ كما يفعل الضعفاء المهزومون ـ إلى الانتحار، لَما كان لها هذا المقام الكبير الَّذي يتقدَّم إليه عدَّة مليارات من المسيحيين والمسلمين بالاحترام والتقدير.

ولو لم يصبر عيسىٰ بن مريم عليه السلام ويثبت، إزاء الشدائد والمصائب الَّتي أوردها عليه الحواريُّون وأعداؤه اليهود، فيترك الميدان ويستسلم إلىٰ الدِّعة، لَما كانت له هذه العَظَمة الَّتي يقرُّ له بها مليارات المسلمين والمسيحيين في العالم بأنَّهُ من أفراد الجنس البشريّ المتميِّزين.

ولو أنَّ رسول الله محمَّد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يتحمَّل المصائب والمشقَّات طيلة ثلاث وعشرين سنة من الزَّمان الصَّعب، فإنَّ الدِّين الإسلاميّ المقدَّس لم يبق علىٰ هذه العظمة.

وإذا ما تأمَّلنا في حياة الأنبياء والأولياء ـ بل حَتَّىٰ كبار العلماء ـ فلربَّما لم نجد أحداً منهم قد بلغ ما بلغ دون أن يطوي مراحل من التحمُّل والصبر والثبات إزاء المصائب والمكاره.

واعلمْ أنَّ الدُّنيا في حقيقتها ملأىٰ بالمكاره والمصائب والكروب. إنَّها دار بالبلاء محفوفة، فلا بُدَّ لكُلِّ أحد أن يصيبه فيها حظٌّ من هذه الشدائد والبليَّات. ولا يهنأ عيش لأحد في هذه الدُّنيا إلاَّ إذا واجه المصائب والمصاعب بالصبر والإيمان.

بعدئذٍ.. قال لي الأستاذ: إذا أردت أن تغدو صبوراً متماسكاً إزاء المصائب والبلاءات فعليك أن تمتِّن اعتقادك بالله تعالىٰ وتقوِّيه. فمن يعرف الله جلَّ جلاله ويستند آوِياً إليه بقلبٍ مطمئنٍّ يقدرْ على احتمال الرزايا، ولا يبقىٰ في داخله للخوف والحزن من ظلّ ولا أثر. يقول الله تبارك وتعالىٰ في هذا الصدد:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (سورة الأحقاف: الآية: ١٣).

ولقد عملت بما أوصاني الأستاذ وبما نصحني. وإذ أنفقت بضعة أشهر من الوقت متطلعاً فيها إلى تحصيل الصبر والاستقامة والثبات إزاء مكاره الدَّهر.. فقد نِلْتُ ـ ولله الحمد ـ ما كنت اتطلَّع إليه، وذهب عنِّي تماماً ما كنت أعانيه من الضعف والخَوَر والعذاب الرُّوحيّ.. بمدد من الله تعالىٰ وتوفيق ـ من كتاب سير إلى الله ـ.

يقول الشهيد الثاني رحمه الله: «اعلم أنَّ الدُّعاء بدفع البلاء وزوال المرض وحفظ الولد لا ينافي الرضاء بالقضاء فقد تعبَّدنا الله بالدُّعاء وندبنا إليه وحثَّنا عليه (إلى أن يقول).

من علاماته أنَّهُ إذا لم يجب إلى مطلوبه لا يتألم من ذلك من حيث عدم إجابته لجواز أن يكون المدعو به مشتملاً على مفسدة لا يعلمها إلاَّ الله تعالىٰ، كما ورد أنَّ العبد ليدعو الله بالشيء حَتَّى

ترحمه الملائكة وتقول: إلٰهي ارحم عبدك المؤمن واجب دعوته فيقول الله تعالىٰ: «كيف أرحمه من شيء به أرحمه».

نعم لو استوحش من حيث احتمال أن يكون السبب الَّذي أوجب ردَّ دعائه بُعده عن الله تعالىٰ فلا حرج، فإنَّ كمال المؤمن أن يكون ماقتاً لنفسه...»[1].

الاعتدال في مواجهة الرخاء والبلاء:

ورد في خطبة المتقين عن لسان أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال: «نُزِّلت أنفسهم منهم في البلاء كالَّتي نُزِّلت في الرخاء»[2].

أي أنَّ المتقين وطَّنوا أنفسهم على قضاء الله وقدره فهم في جميع أحوالهم على حدٍّ سواء لا يفرحون بما آتاهم ولا يحزنون على ما فاتهم وهو معنى قوله تعالىٰ: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (سورة الحديد: الآية: ٢٣).

ولا يصل المؤمن إلى هذه الحالة إلاَّ عندما يزهد في الدُّنيا لأنَّ العاشق للدُّنيا هو الَّذي يفرح لها ويحزن عليها كالطفل العاشق للّعب، لذا ورد عن الإمام علي عليه السلام أنَّهُ قال حول الآية المذكورة: «الزهد كُلُّه بين كلمتين في القرآن قال الله تعالىٰ: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا﴾ ومنْ لم يأس على الماضي ولم يفرح بالآتي فقد أخذ الزهد بطرفيه»[3].

وعنه عليه السلام: «أنَّ النَّاس ثلاثة: زاهد وصابر وراغب: فأمَّا

---

(١) مسكن الفؤاد: ص٩٠.

(٢) نهج البلاغة: خطبة ١٦٢.

(٣) الأمثل: ج١٨، ص٦٤.

الزاهد فقد خرجت الأحزان والأفراح من قلبه، فلا يفرح بشيء من الدُّنيا ولا يأسى على شيء منها فاته فهو مستريح»[1].

وقد ورد عن الإمام الكاظم عليه السلام أنَّهُ قال: «لم يكن رسول الله يقول لشيء قد مضىٰ لو كان غيره»[2].

عن الإمام الصَّادق عليه السلام: «أوحىٰ الله تعالىٰ إلى داود صلوات الله عليه أنَّ خلادة بنت أوس بشِّرها بالجَنَّة، وأعْلِمها أنَّها قرينتك في الجَنَّة، فانطلق إليها فقرع الباب عليها، فخرجت وقالت: هل نزل فيَّ شيء؟ قال: نعم، قالت ما هو؟ قال: إنَّ الله تعالىٰ أوحى إليَّ وأخبرني إنَّكَ قرينتي في الجَنَّة، وأن أُبشِّرك بالجَنَّة، قالت: أويكون اسم وافق اسمي؟! قال: إنَّكَ لأنت هي! قالت: يا نبيَّ الله ما أكذِّبكَ، ولا والله ما أعرف من نفسي ما وصفتني به.

قال داود: أخبريني عن ضميرك وسريرتك ما هو؟ قالت: أمَّا هذا فسأخبرك به، أخبرك أنَّهُ لم يصبني وجع قطّ نزل بي كائناً ما كان، ولا نزل ضرٌّ بي، وحاجة، وجوع، كائناً ما كان، إلاَّ صبرت عليه، ولم أسأل الله كشفه عنِّي حَتَّى يحوِّله الله عنِّي إلى العافية والسَّعة، ولم أطلب بها بدلاً، وشكرت الله عليها وحمدته، فقال داود صلوات الله عليه: فبهذا بلغت ما بلغت.

ثمَّ قال أبو عبد الله عليه السلام: وهذا دين الله الَّذي ارتضاه للصالحين»[3].

---

(١) نور الثقلين: ج٥، ص٢٤٨.
(٢) ميزان الحكمة.
(٣) ميزان الحكمة.

قال قتيبة بن سعيد: دخلت على إحدىٰ قبائل العرب فرأيت صحراء مملوءة بجمال ميّتة لا تُعدّ، وكانت بقربي امرأة عجوز فسألتها: لمنْ هذه الجمال؟

قالت: لذلك الرجل الجالس فوق التل الّذي تراه يغزل، فذهبت إليه وقلت له: هل هذا كُلُّه لك؟ قال: كانت باسمي. قلت: ما الّذي جرى وأصبحن بهذا الحال؟ فأجابني ـ دون الإشارة إلى علّة موتهنّ ـ: إنَّ المُعطي قد أخذ، قلت: هل ضجرت لما أصابك؟ وهل قلت شيئاً؟ قال: نعم.

لا والّذي أنا عبدٌ من خلائقه والمرء في الدّهر نصب الرزء والمجن
ما سرني أن أبلي في مباركها وما جرى في قضاء اللّه لم يكن

يقول أحد المؤمنين:

لطف الحبيب وقهره سيّان عندي لا تعجبنّ أحبّ منه كل ضدّ
طيب حلو آذاه تراه روحي افتدى فيه الحياة بكل ودّ

جزاء الآخرة:

ذكر علماء الأخلاق: أنَّ العالم بأجمعه مرتبط بعضه ببعض فالعالم العلوي مرتبط بالدنيوي، والرُّوحي بالمادي، وهكذا دواليك، وهذا الارتباط موجود أيضاً بين عالمي الدُّنيا والآخرة، وهو كارتباط الظاهر بالباطن، فعالم الآخرة هو باطن عالم الدُّنيا، ويتفرع على ذلك أنَّ ما يحصل في هذه الدُّنيا يؤثّر في عالم الآخرة فما يعمله الإنسان من خير أو شر سيظهر بحقيقته في العالم الآخرة[١].

---

(١) دروس في التفسير: للفهري، ج٢، ص٣٨.

إذا تقرَّر ذلك يتوضح الحديث التالي عن النبي ﷺ: «ليودّن أهل العافية يوم القيامة أنَّ جلودهم قُرضت بالمقاريض لما يرون من ثواب أهل البلاء»[1].

وعنه عليه السلام: «عجبت للمؤمن وجزعه من السقم ولو علم ما له في السقم لأحبَّ أن لا يزال سقيماً حَتَّىٰ يلقى ربَّه عزَّ وجلَّ»[2].

عن الإمام الحسن عليه السلام عن رسول الله ﷺ أنَّهُ قال: «إنَّ في الجَنَّة شجرة يُقال لها: شجرة البلوى يؤتىٰ بأهل البلاء يوم القيامة فلا يُرفع لهم ديوان ولا يُنصب لهم ميزان، يُصبَّ عليهم الأجر صبّاً وقرأ عليه السلام: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (سورة الزمر: الآية: ١٠)»[3].

وفي هذا المجال يُروى أنَّ هارون العبَّاسي بعث رجلاً إلى الإمام موسىٰ الكاظم عليه السلام وكان سجيناً عنده فقال له الرسول: «ابن عمِّك أمير المؤمنين يبلغك السَّلام ويقول لك: نعفو عنك ولكن بشروط معينة فما كان من الإمام إلاَّ أن أجاب: «كل يوم يمرُّ فإنَّهُ يقربني إلىٰ الجَنَّة خطوة ويقرِّبه إلىٰ النَّار خطوة وسنلتقي عند الله تعالىٰ».

يقول الشهيد الثاني رحمه الله: «اعلم أنَّ الله سبحانه عدل غني مطلق، لا يليق بكمال ذاته وجميل صفاته أن يُنزل بعبده المؤمن في

---

(١) دار السَّلام: ج٤، ص١٧٥.

(٢) ميزان الحكمة.

(٣) مسكن الفؤاد: ص٤٨.

دار الدُّنيا شيئاً من البلاء وإن قلّ، ثمَّ لا يعوضه عنه ما يزيد عليه»[١].

أن لا يشكو بليته إلى أحد:

في الحديث: «أوحىٰ الله تعالىٰ إلى عُزير: «... وإذا نزلت إليك بليَّة فلا تشك إلى خلقي كما لا أشكوك إلى ملائكتي عند صعود مساويك وفضائحك»[٢].

عن جابر قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: ما الصبر الجميل؟ قال: «ذلك صبر ليس فيه شكوىٰ إلى أحد من النَّاس. إنَّ إبراهيم بعث يعقوب إلى راهب من الرهبان، عابد من العبَّاد في حاجة، فلمَّا رأه الراهب حسبه إبراهيم، فوثب إليه فاعتنقه، ثمَّ قال له: مرحباً بخليل الرَّحمٰن، فقال له يعقوب: إنِّي لست بخليل الرَّحمٰن، ولكن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، قال له الراهب: فما الَّذي بلغ بك ما أرىٰ من الكبر؟ قال: الهمّ والحزن والسقم، قال: فما جاز عتبة الباب حَتَّىٰ أوحىٰ الله إليه: يا يعقوب، شكوتني إلى العبد؟! فخرَّ ساجداً عند عتبة الباب يقول: ربِّ لا أعود، فأوحىٰ الله إليه: إنِّي قد غفرت لك فلا تعد إلى مثلها، فما شكا شيئاً مِمَّا أصابه من نوائب الدُّنيا إلاَّ أنَّهُ قال يوماً: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾»[٣].

عن يونس بن عمَّار قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول:

---

(١) مسكن الفؤاد: ص٢٩.

(٢) ميزان الحكمة: مادة «المرض».

(٣) التمحيص: ص٤٣١.

«أيّما مؤمن شكا حاجته وضرَّه إلى كافر أو إلىٰ من يخالفه على دينه فإنَّما شكا الله إلىٰ عدوٍّ من أعداء الله، وأيَّما مؤمن شكا حاجته وضرَّه وحاله إلى مؤمن مثله كانت شكواه إلى الله عزَّ وجلَّ»[1].

عن الإمام الصَّادق عليه السلام: «ليست الشكاية أن يقول الرجل: مرضت البارحة أو وعكت البارحة، ولكن الشكاية أن يقول: بُليت بما لم يبل به أحد»[2].

وما يُنسب للإمام زين العابدين عليه السلام:

وإذا بُليت بعسرة فاصبر لها صبر الكرام فإنَّ ذلك أحزم
لا تشكون إلى الخلائق إنَّما تشكو الرَّحيم إلىٰ الَّذي لا يرحم

الاعتبار بابتلاء الآخرين:

فلنذهب إلى المستشفيات وننظر في أحوال المرضى لنحمد الله على سلامتنا من المرض، ولنزر المقابر ونشكر الله على أنَّا من الأحياء، وهكذا نفعل إذا رأينا الَّذين ابتلوا بالفقر والذلِّ والعمى والصم وغير ذلك.

عن الإمام علي عليه السلام: «سعادة المرء في القناعة والرضا»[3].

وفي مضمون رواية: «في النعم انظروا إلى من تحتكم، وفي المصائب انظروا إلى من هو فوقكم».

ويُذكر في هذا الموضوع أنَّهُ كان فيما كان قرية بها عجوز

---

(١) المصدر نفسه: ص٤٢٩.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) غرر الحكم.

حكيم. وكان أهل القرية يثقون فيه، في الإجابة على أسئلتهم ومخاوفهم.

وفي أحد الأيَّام؛ ذهب فلاح من القرية إلى العجوز وقال بصوت محموم: «أيُّها الحكيم؛ ساعدني، لقد حدث لي شيء فظيع. لقد هلك ثوري وليس لدي حيوان يساعدني على حرث أرضي! أليس أسوأ شيء يمكن أن يحدث لي؟».

فأجاب الحكيم: «ربَّما كان ذلك صحيحاً، وربَّما كان غير صحيح».

فأسرع الفلاح عائداً لقريته وأخبر جيرانه أنَّ الحكيم قد جن، وكان يظنُّ أنَّ ذلك أسوأ شيء يمكن أن يحدث للفلاح، فكيف لم يتسنَّ للحكيم أن يرى ذلك؟

إلاَّ أنَّهُ في اليوم ذاته، شاهد النَّاس حصاناً صغيراً قوياً بالقرب من مزرعة الرجل. ولأنَّ الرجل لم يعد عنده ثور ليعينه في عمله، فقد أتت الرجل فكرة اصطياد الحصان ليحل محل الثور، وهو ما قام به فعلاً.

وقد كانت سعادة الفلاح بالغة، فلم يحرث الأرض بمثل هذا اليسر من قبل. وما كان الفلاح إلاَّ أن عاد للحكيم وقدم إليه أسفه قائلاً: «لقد كنت محقاً أيُّها الحكيم، إنَّ فقداني للثور لم يكن أسوأ شيء يمكن أن يقع لي، لقد كان نعمة لم أستطع فهمها فلو لم يحدث ذلك لما تسنى لي أبداً أن أصيد حصاناً جديداً، لا بُدَّ أنَّكَ توافقني على أنَّ ذلك هو أفضل شيء يمكن أن يحدث لي».

فأجاب الحكيم: «ربَّما نعم، وربَّما لا».

فقال الفلاح لنفسه: «لا؛ ثانية؟!، لا بُدَّ أنَّ الحكيم قد فقد صوابه هذه المرَّة».

لم يدرك الفلاح ما سيحدث. وبعد مرور بضعة أيَّام سقط ابن الفلاح من فوق صهوة الحصان، فكسرت ساقه ولم يعد بمقدوره المساعدة في حصاد المحصول.

ومرَّة أخرى، ذهب الفلاح إلى الحكيم وقال له: «كيف عرفت أنَّ اصطيادي للحصان لن يكون أمراً جيداً؟ لقد كنت على صواب ثانية، فلقد جرح ابني ولن يتمكن من مساعدتي في الحصاد. هذه المرة أنا على يقين بأنَّ هذا هو أسوأ شيء يمكن أن يحدث لي، لا بُدَّ أنَّكَ توافقني هذه المرة».

ولكن، كما حدث من قبل، نظر الحكيم إلى الفلاح وأجابه بصوت تعلوه الشفقة وقال: «ربَّما نعم، وربَّما لا».

استشاط الفلاح غضباً من جهل الحكيم وعاد من فوره إلى القرية.

في اليوم التالي، قدم أفراد الجيش واقتادوا جميع الرِّجال القادرين للمشاركة في الحرب الَّتي اندلعت للتو، وكان ابن الفلاح الشاب الوحيد الَّذي لم يصطحبوه معهم. ومن هنا كتبت له الحياة في حين أصبح محتماً على الباقين أن يلقوا حتفهم.

إنَّ المغزى الأخلاقي لهذه القصَّة يعد درساً نافعاً للغاية. وحقيقة الأمر، أنَّنا لا ندري ماذا سيحدث غداً، نحن فقط نعتقد أنَّنا

نعلم ذلك، وغالباً ما نضخم من شيء ما، ونخترع أحداثاً مبالغاً فيها في عقولنا عن أشياء بشعة سوف تحدث. أمَّا إذا احتفظنا برباطة جأشنا وفتحنا عقولنا أمام كل الاحتمالات، لتأكدنا من أنَّ كُلّ شيء سيصبح على ما يرام في نهاية المطاف. وتذكر: «قد يكون الأمر كذلك، وقد لا يكون»[1].

يقول ديل كارنيجي:

«أعرف «هارولد أبوت» منذ سنوات، يعيش في شارع «ساوث ماديسون» رقم ٨٢٠، وقد كان مدير معهدي، في ذات يوم، التقينا في «كنساس سيتي» فأوصلني إلى مزرعتي في مدينة «بلتون» بولاية ميـــوري، وخلال الطريق سألته: كيف يتجنب القلق والكآبة، فأخبرني قصة لن أنساها أبداً.

قال لي: كنت دائم القلق؛ لكن في أحد أيَّام الربيع من عام ١٩٣٤، كنت أتمشى في شارع «دورتي» الغربي في «وبي سيتي» حين رأيت منظراً أزال عنِّي القلق، حدث ذلك خلال عشر ثوان، لكن خلال العشر ثوان هذه، تعلمت كيف أعيش أكثر مِمَّا تعلمته في العشر سنوات السابقة. فمنذ سنتين، كنت أدير مخزن بقالة في وبي سيتي، لم أخسر جميع مدخراتي فقط، بل غرقت في ديون تتطلب منِّي سبع سنوات للتخلص منها، وقد أقفل مخزني وذهبت إلى بنك التجَّار والصناعيين لاستدانة المال الكافي لانتقالي إلى كنساس سيتي للبحث عن عمل.

---

(١) كيف تتمتع بحياتك: ص٧٢.

كنت أسير كالرجل المهزوم، وقد فقدت ثقتي وشجاعتي. وفجأة رأيت رجلاً وقد بترت قدماه، كان يجلس على مقعد يرتكز على عجلات، ويزحف في الشارع بمساعدة قطع من الخشب يشبها في كل يد.

التقيت به بعدما عبر الشارع وبدأ يرفع نفسه ليصل إلى الرصيف. وفيما هو يفعل ذلك، التقت عيناه بعيني، فابتسم لي ابتسامة عريضة قائلاً: صباح الخير يا سيِّد، صباح جميل، أليس كذلك؟

وفيما أنا واقف أنظر إليه، عرفت كم أنا غني.. فأنا أملك ساقين، وأستطيع السير. شعرت بالخجل من نفسي، وقلت في نفسي: إذا كان هو سعيداً ومرحاً وواثقاً من نفسه، برغم من أنَّه فقد ساقيه، فكيف يجب أن أكون أنا بوجود ساقي؟

شعرت بالارتياح؛ وكنت قد قررت أن أستلف مبلغ مئة دولار فقط من البنك، فأصبحت لدي الشجاعة الكافية لطلب مائتين. وكنت أتردد أن أقول إنَّني ذاهب إلى «كنساس سيتي» لأحاول العثور على العمل. لكنِّي الآن أعلن بثقة أنَّني أريد الذهاب إلى «كنساس سيتي» للحصول على عمل، فحصلت على القرض وحصلت على العمل.

ويومها ألصقت هذه الكلمات على المرآة حيث يمكنني قراءتها كل صباح:

«شعرت بالكآبة لأنَّ لا حذاء لي حتّى التقيت في الشارع برجل لا ساقين لديه»[1].

---

(١) المصدر السابق ص٥٧.

وكما علينا أن ننظر إلى منْ هو أكثر مِنَّا بلاءً كذلك علينا أن لا ننظر في الأُمور الصغيرة الَّتي تعكر صفو الحياة.

يقول «دايل كارنيجي:

هناك على منحدر جبل عالٍ في أميركا، توجد بقايا شجرة ضخمة، يقول علماء النبات إنَّها عاشت نحو أربعمائة عام، تعرضت فيها للصواعق والزوابع والأعاصير، فلم تتأثر بها، وقاومتها جميعاً. وحدث في السنوات الأخيرة، أن هجم على هذه الشجرة حشد من الخنافس، وراح يشق طريقه إلى قلبها، فما لبث قليلاً حَتَّىٰ انهارت أمام الهجمات المتوالية لتلك الخنافس الصغيرة، الَّتي يستطيع طفل صغير أن يسحقها تحت قدميه.

ألسنا جميعاً مثل هذه الشجرة الضخمة؟.. ألسنا في كثير من الأحوال نقاوم الزوابع الشديدة، والأعاصير الثائرة، ثمَّ ندع قلوبنا «الخنافس» تأكلها الهموم وتحطمها؟ فلكي تحطم الهم قبل أن يحطمك، احرص على ألا تتضايق من التوافه وتعلق عليها أهمية كبيرة، واذكر دائماً أنَّ الحياة أقصر من أن يُعنى المرء فيها بالتوافه.

ومن أقوال دزرائيلي المأثورة: «إنَّ الحياة أقصر من أن يُعنى المرء فيها بالتوافه».

وقد كتب «اندريه موروا» يقول: «إنَّ عبارة دزرائيلي أعانتني على أن اجتاز ظروفاً كثيرة مؤلمة. فنحن غالباً ما نسمح لأنفسنا بأن نتضايق ونثور لأسباب تافهة كان ينبغي أن ننساها ولا نعلق عليها أية أهمية. إنَّ العمر مهما طال مداه.. قصير. ومع ذلك فأنَّنا نقضي

ساعات لا تعوض في التفكير والأسى والأسف على أشياء تافهة، لا شك في أنَّا مع غيرنا من النَّاس، سنناها مع الوقت. أليس من الخير أن نكرس أوقاتنا القصيرة لأداء أعمال جليلة، وانتاج آثار خالدة، والتفكير بأشياء مفيدة مسلية، وخدمات لغيرنا خالصة؟».

وليس من شك في أنَّ الأخفاق في كثير من الأعمال والمشروعات الَّتي يتطلب نجاحها التعاون والتضامن إنَّما يرجع إلى أُمور حقيرة تافهة، قد يضحك المرء على موقفه منها بعد حين.

قرأت لأحد القضاة أنَّهُ خلال أربعين عاماً، عرض عليه فيها ما لا يقل عن ألف قضية من قضايا الخلافات الزوجية، لاحظ أنَّ الاهتمام بالتوافه هو سر أكثر تلك الخلافات.

وقرأت لقاضٍ آخر أنَّ نصف القضايا الجنائية الَّتي عرضت عليه كانت نتيجة أشياء تافهة، كمناقشة في حانة، أو خلاف على مبلغ تافه، أو إشارة أسيء فهمها أو عبارة جافة.

ولو أنَّ هذه التوافه عولجت بحكمة وروية وبعد نظر، لمرت بسلام وكأنَّها لم تكن. ولكن ما جبل عليه أكثر النَّاس في الغرور والأنانية والتسرع يأبى إلاَّ أن يخلق من تلك الحبة قبة، وإلاَّ أن يحيل تلك الشرارة التافهة إلى بركان أو جحيم.

حدثني صديق لي، قال:

«تلقيت أعظم درس في حياتي من حادث صادفته خلال الحرب الماضية. فقد كنت أعمل في غواصة بالقرب من جزائر الهند الصينية، مع فرقة مؤلفة من ثمانية وثمانين جندياً. وفوجئنا يوماً بقُوَّة

بحرية كبيرة تهجم علينا وبدا أنَّها أكبر عدداً مِنَّا. وكانت طائرة يابانية قد كشفت موقعنا، ونحن على عمق ٦٧ قدماً من سطح البحر. فأبلغت أمرنا إلى رؤسائها، وسرعان ما خفت إلينا هذه القُوَّة الكبيرة للقضاء علينا. فاضطررنا أن نغوص إلى عمق ١٥٠ قدماً وأطفأنا الأنوار، وعطلنا المراوح وأجهزة التبريد مبالغة في الاستخفاء والوقاية، ولم تمض دقائق حَتَّى كانت الألغام تنفجر حولنا من كل الجهات.

لم يكن في وسعنا أن نصنع شيئاً لصد هذا الانقضاض الخاطف المهول، فأخذنا نترقب الموت بين لحظة وأخرى.. مع أنَّ الحرارة داخل الغواصة كانت قد ارتفعت حَتَّى قاربت المائة درجة نتيجة لتعطيل المراوح وأجهزة التبريد، وكانت أسناننا تصطك وأطرافنا ترتعد وكأنَّنا في درجة من الحرارة تحت الصفر.

واستمر الهجوم خمس عشرة ساعة، مضت علينا كأنَّها خمسة عشر مليون عام.

كانت صور الماضي خلال هذه الساعات على اختلاف أنواعها وألوانها أمام عيني، وهي تسرع تارة وتبطىء أخرى. وقد رأيت بينها صور جميع ما اقترفته من المساوىء والشرور والآثام، وصور الأشياء السخيفة التافهة الَّتي أقلقتني شهوراً من قبل.

كنت محاسباً بأحد البنوك قبل أن ألتحق بالجيش. وطالما ضقت ذرعاً بطول الساعات الَّتي كنت أقضيها في عملي.. وبضآلة الأجر الَّذي كنت أتقاضاه، دون أن يكون لي أمل في تحسين حالتي. وشدّ ما كان يؤلمني حينذاك شعوري بالعجز عن شراء

«فيللا» أو اقتناء عربة، أو هدية أقدمها لزوجتي في أحد أعياد ميلادها.

وشدَّ ما كنت أكره رئيسي في البنك، الَّذي كان يؤنبني لغير ما سبب ظاهر، ويتهمني بالتقصير لمناسبة وغير مناسبة. فكنت أعود إلى المنزل في أكثر الأمسيات حاقداً غاضباً ناقماً، فأتشاجر مع زوجتي المسكينة لأتفه الأُمور..

كل هذه الصور السخيفة التافهة من حياتي الماضية مرت على ذهني وأنا انتظر الموت مع رفاقي بالغواصة، بل لقد تمثلت لعيني صورة مكبرة لما هو أسخف وأتفه، فتكرت مثلاً إصابتي بمرض جلدي ضايقني بضعة أيَّام، وتذكرت جرحاً بسيطاً أصبت به في حادث سيارة.

وبقدر ما كانت هذه الحوادث تبدو لي مزعجة منذ سنوات كنت أراها الآن على حقيقتها تافهة سخيفة.. والمتفجرات تهدد غواصتنا بالنسف وتنذرنا بالتأهب للانتقال إلى العالم الآخر.

وعاهدت نفسي إن كتبت لي النجاة ورؤية نور الشمس مرَّة أخرىٰ، ألا أهتمَّ لشيء من هذه التوافه الَّتي تعرض لكل امرىء في حياته اليومية، فلما نجونا بعد يأس، لم أنس ذلك العهد، وأخذت به نفسي فأفدت من ذلك إلى حدِّ كبير. والحق أنَّني تعلمت من دروس الحياة في تلك الساعات الرهيبة أكثر مِمَّا تعلمته من دراساتي الجامعية، ومن كل مطالعاتي.

والواقع أنَّنا كثيراً ما نواجه المصائب الكبيرة في الحياة بشجاعة

وصمود، ولكنّا ندع التوافه والصغائر تحطم أعصابنا وتنغص عيشتنا.

قد ذكر «بيرد» أنَّ اتباعه الَّذين رافقوه في رحلته الاستكشافية للمناطق القطبية كانوا يظهرون من الجلد والصبر وتحمل الجوع والبرد ما كان يثير دهشته. ولكنَّهم كانوا كثيراً ما يختلفون ويتشاجرون لأنَّ أحدهم جلس بالمكان المخصص لزميله، أو لأنَّه طلب منه شيئاً بلهجة جافة، أوأخذ قطعة أكبر من الخبز، وعلَّق «بيرد» على هذا قائلاً:

«إنَّني لم أكن أخشى الأخفاق بسبب الشدائد والعقبات، بقدر ما خشيته بسبب تلك التوافه والصغائر»[1].

الاستعداد للبلاء:

ما دامت الحياة مجبولة على المصائب والمحن فلا بُدَّ للإنسان أن يتوقع البلاء في كل يوم وأن يستعد لتقبله.

فعن الإمام الصَّادق عليه السلام: «منْ لا يعد الصبر لنوائب الدَّهر يعجز»[2].

وعنه عليه السلام: «ما من مؤمن إلاَّ وهو مبتلى ببلاءٍ منتظر به ما هو أشد منه فإن صبر على البليَّة الَّتي هو فيها عافاه الله من البلاء الَّذي ينتظر به، وإن لم يصبر وجزع نزل به من البلاء المنتظر أبداً حَتَّى يحسن صبره وعزاؤه»[3].

---

(١) كيف تكسب الثروة والقيادة والنجاح: ص٦١.
(٢) بحار الأنوار: ج٧١، ص٨٣.
(٣) الصبر في الإسلام: ص١٦٨.

ويقول المستر (كارنگي): أتعلم لماذا صار لإطار السيارة هذه القدرة على تحمُّل كُلّ هذا الضغط، وعلى الصعود والهبوط أثناء المسير؟

في البداية كان هدف صُنَّاع الإطارات إعداد نوع من المطّاط الَّذي يقاوم مطبَّات الطرقات. بيد أنَّهم سرعان ما اكتشفوا خطأهم؛ إذ أنَّ هذا المطّاط بدأ يتهرَّأ بعد مدة قصيرة ويتناثر إلى قطع صغيرة. وقد قادهم هذا إلى صناعة الإطارات الَّتي تُنْفَخ بالهواء. ومن خصائص هذه الإطارات الهوائيَّة أنَّها قادرة على تحمل الضغط، وقادرة على امتصاص أثر مطبَّات الطَّريق.

إنَّ هذه المسألة تشبه حالتنا أنا وأنت؛ فإذا ما أردنا أن نحيىٰ حياة هانئة لا تعكِّرها الهزَّات والمطبَّات فعلينا أن نتعلَّم كيف نمتصُّ ضغوط الحياة ومطبَّات الطرقات المليئة بالحفر والعقبات. وهذا يعني أن نتصف بالثبات في مقابل الشدائد وإلاَّ نفتقد ما يحيط بنا من صداقات.

وقد صدق «وليم جيمس» حين قال: إنَّ تقبل المصائب بالشجاعة والتسليم للقدر هو الخطوة الأولى في سبيل النجاة من عواقبها».

وقريب من هذا ما قاله «شوبنهاور»: إنَّ ترويض النَّفس على التسليم لأحكام القدر، والشجاعة أمام المصائب يعيننا على السير في رحلتنا في هذا العالم بسلام».

يقول «دايل كارنيجي»:

وفي مقدمة الذكريات العزيزة الَّتي احتفظ بها كتاب حكيم تلقيته من صديقتي «اليزابت كونلي» بعد أن فقدت ابن أخيها الَّذي كان عزاءها الوحيد بعد فقد أبيه وزوجها قبله، وقد قالت في كتابها:

«في اليوم الَّذي احتفلت فيه أمريكا بانتصار جيوشها في شمال أفريقيا، جاءتني برقية من إدارة الجيش بأنَّ ابن أخي، الضابط الشاب في تلك الجيوش يعد في حكم المفقودين، وبعد فترة وجيزة، جاءتني برقية أخرى تنبئني بأنَّه مات، وقد صعقت لهذا النبأ، فقد كان ابن أخي هذا بمثابة ابني وأخي وزوجي في وقتٍ واحد. وقد جعلني أحسُّ بعد تخرجه في الجامعة أنَّ الدُّنيا بدأت تبتسم لي وتقبل عليَّ. وبدأت أرى فيه كل ما في هذه الدُّنيا من الجمال والخير. فلما فوجئت بنعيه الأليم انهارت آمالي وشعرت بأنَّ الحياة لم يبق فيها شيء يستحق أن أعيش من أجله. فأهملت عملي وهجرت معارفي. واسترسلت في أحزاني وهواجسي. ورحت أتساءل في شبه ذهول:

(لماذا يختطف الموت هذا الشاب الحبيب الَّذي كان كل شيء لي في الحياة، والَّذي ما زالت الحياة أمامه فسيحة رحبة الآفاق؟).

«وقررت أن أستقيل من عملي، وأن أرحل إلى مكان بعيد لا يعرفني فيه أحد، أغتنم فيه الفرصة للانتحار والتخلص من نوبة الحزن الطاغي واليأس الشديد. وحين شرعت أنظف مكتبي لتسليم أوراقي، وجدت رسالة قديمة من الفقيد العزيز قال فيها:

«لن أنسى الحقائق الجميلة الَّتي علمتنيها، ومهما تبعد المسافة بيني وبينك.. فسأذكر دائماً نصيحتك لي بتقبل كل ما يجيء به القدر، بوجه باسم ونفس راضية مطمئنة».

أعدت تلاوة هذا الكتاب مرَّات، فأحسست أنَّه بجانبي وأنَّهُ يقول لي:

ـ لماذا لا تعمِلين بما كنت توصينني بعمله؟ أليس الأفضل أن تواصلي السير قدماً في طريق الحياة.. إنَّها مشيئة الله، ولا راد لمشيئته. ومهما يكن من شيء فسوف نلتقي عمَّا قريب.

«وترك هذا الخاطر في نفسي أثراً عميقاً. فعدت إلى عملي وقد خفَّت مرارة جزعي وأساي، ورحت أركز كل تفكيري في عملي، وفي خدمة شباب الجيش الَّذين كان الفقيد أحدهم، وألتحقت بمدرسة ليلية، كما رحت أبحث عن هوايات جديدة تلائمني، وعن أصدقاء جدد أكثر اتفاقاً معي في الميول والعادات.. وأنا أعيش الآن حياة أعمق وأوسع مِمَّا عرفت من قبل»[1].

ليست الظروف وحدها هي الَّتي تجعلنا سعداء أو أشقياء، فالواقع أنَّ سلوكنا حيال هذه الظروف هو الَّذي يضع القواعد الأولى لسعادتنا أو شقائنا. وفي أعماق كل مِنَّا قوى كامنة تجعل من السهل عليه أن يتحمل المصائب ويتغلب عليها.. وإن خيِّل إليه للمرء أنَّهُ لن يستطيع ذلك.

كان «بوث تاركنفتون» يقول:

ـ «أستطيع أن أتقبل أي شيء تفرضه عليَّ الحياة إلاَّ شيئاً واحداً هو العمى.

ولما بلغ الستين من عمره، نظر يوماً إلى السجادة الَّتي تحت

---

(١) كيف تكسب الثروة والقيادة والنجاح: ص٢٨.

قدميه، فلم يميز رسومها وألوانها. وعلم من الأخصائي الّذي ذهب لاستشارته أنَّ إحدى عينيه سوف تفقد نورهما، وأنَّ عينه الأخرى مهددة بمثل ذلك.

وعرف تاركنفتون كيف يواجه هذه الكارثة، واستمع له إذ يقول في ذلك:

«لقد أجريت لي في عام واحد اثنتا عشرة عملية رجاء استعادة بصري، ومع أنَّ هذا الأمل لم يتحقق، لم أثر أو أتمرد إذ أحسست أنَّ ذلك أمر لا سبيل إلى الهرب منه، ولا بُدَّ من الرضا به. وقد رفضت منذ الجراحة الأولى أن أنام في غرفة خاصة بالمستشفى، مؤثراً أن أكون في بهو كبير ضمَّ كثيرين غيري، حيث أخذت أحاول أن أشجعهم وأدخل الفرح إلى نفوسهم، فكان ذلك يسعدني ويشجعني. ولما قضى الأمر ولم أستعد بصري بعد كل تلك العمليات رحت أقول لنفسي ما قاله «ملتون»:

(ليس مؤلماً أن يكون المرء أعمى، ولكن المؤلم ألا يكون قادراً على تحمل العمى)..

إنَّها لحماقة كبرى تلك الَّتي يقترفها من لا يتجملون بالصبر والإيمان حين تحل بهم الشدائد والنكبات. وأية حماقة أكبر من أن يثور المنكوب ويفقد رشده فيحاول في جنون أن يضرب الأرض بقدميه، وأن ينطح الجدران برأسه.. أنَّ هذا المسكين لن يخفف بذلك من نكبته، بل هو على عكس ذلك يضعف من قدرته على مواجهتها، فيضاعفها من حيث لا يدري.

هل رأيت مرة جواداً، أو ثوراً أو أي حيوان، استسلم للحزن

واليأس، أو حطَّم أعصابه بالغضب والثورة، لأنَّ نكبة ما حلَّت بمرعاه، أو لأنَّهُ لم يكن موفقاً في عيشته مع أُثاه.

ولست أعني بذلك أن تنحني بكُلِّ بساطة أمام جميع المصائب والأزمات. فما دامت هناك فرصة لأن ينقذ المرء نفسه منها، فمن واجبه أن ينتهزها، وأن يكافح في سبيلها. ولكن عندما يحكم العقل والمنطق بأن لا فائدة ترجى من الصراع والكفاح فعلينا أن نكف عنهما لنوفر على أنفسنا تحمل عناء جديد.

وقد سألت كثيرين من كبار رجال الأعمال عن مسلكهم إزاء الكوارث الَّتي حلَّت بهم، فقال لي هنري فورد:

«عندما لا أستطيع أن أعالج الأزمات الَّتي أصادفها، فأنَّني أدعها تعالج نفسها بنفسها».

وقال لي «ك. كلر» مدير شركة كريزلر:

«عندما أواجه موقفاً حرجاً، فأنَّني أفكر فيه وأبحثه من جميع نواحيه، فإن وجدت في استطاعتي أن أصنع شيئاً مجدياً للتخلص منه، سارعت إلى صنعه، وإلاَّ تعمدت نسيانه».

ثمَّ أضاف إلى ذلك قائلاً:

«إنَّني لا أخاف من المستقبل، ولا أعرف رجلاً في هذه الدُّنيا يمكن أن يعلم ما ستأتي به الأيَّام».

أن يحمل همَّ الحاضر:

عن الإمام الصَّادق عليه السلام: «اصبروا على الدُّنيا فإنَّما هي ساعة

فما مضى منها لا تجد له ألماً وسروراً، وما لم يجىء فلا تدري ما هو، وإنَّما هي ساعتك الَّتي أنت فيها، فاصبر على طاعة الله واصبر فيها عن معصية الله»[1].

وعن الإمام الرِّضا عليه السلام: «... فاصبر على تلك الساعة الَّتي أنت فيها فكأنَّكَ قد اغتبطت»[2].

إنَّ علينا أن نعرف أنَّ درجة السكينة القلبية تتوقف على مدى قدرتنا للعيش في الوقت الحاضر بصرف النظر عمَّا حدث في الماضي البعيد، أو بالأمس القريب، وبصرف النظر عمَّا يمكن أن يحدث لنا في الغد البعيد أو القريب أيضاً.

إنَّ كثيراً من النَّاس يعيشون في حالة من القلق الدائم على أُمور لم تحدث لهم، أو أنَّها حدثت لهم ولكنَّهم لا يملكون القدرة على تغييرها.

وهكذا فإنَّهم يجعلون حاضرهم تحت رحمة الماضي، أو المستقبل. مِمَّا يؤدِّي بهم إلى الشعور باليأس، والقلق والإحباط والضيق.

وأمثال هؤلاء (يؤجلون) شعورهم بالبهجة والسعادة، ليوم لا يأتي. أو أنَّهم (يبيعون) هذا الشعور بيوم مضى ولن يتكرر.

إنَّ الَّذين ينتظرون يوماً أفضل من يومهم لا يسمحون لعقولهم بأن تعمل بما يضمن لهم عمل (الأفضل) في المستقبل، بل أنَّهم

---

(١) بحار الأنوار: ج١، ص١٥٢.

(٢) لئالئ الأخبار: ج١، ص٢٥٨.

سوف يكررون نفس الأعمال الَّتي تسلب منهم الشعور بالبهجة والسعادة في أيٍّ وقت.

فالَّذين لا يعيشون في حاضرهم، يكررون دائماً الوسائل الَّتي تؤدِّي بهم إلى الشعور بالإحباط.

يقول أحدهم: «في حين تنشغل بعمل خطط أخرى، فإنَّ أطفالنا ينامون وأحباؤنا يبتعدون عنَّا ويموتون، كما يسوء مظهر أجسامنا وكذلك فإنَّ أحلامنا تنسل من بين أصابعنا. وباختصار، فإنَّنا نُضيِّع حياتنا».

إنَّ العديدين يعيشون وكأنَّ الحياة تجربة لما سيحدث في المستقبل، ولكن ليس هذا حالنا. في واقع الأمر، ليس هناك ما يضمن حياة أي مِنَّا في الغد. إنَّ الوقت الحاضر هو الوقت الوحيد الَّذي نملكه والوقت الوحيد الَّذي نسيطر عليه، فعندما نركز على الوقت الحاضر، فإنَّنا نلقى بالخوف خارج عقولنا. فالخوف هو القلق بشأن الأحداث الَّتي قد تقع في المستقبل ـ كالقلق بشأن أن لا نملك قدراً كافياً من المال أو الخوف من أنَّهُ سيقع أبناؤنا في مشكلة صعبة، أو أنَّنا سوف نعجز ونموت أو ما إلى ذلك ـ.

ولكي نقاوم الخوف، فإنَّ أفضل ما يمكن عمله هو أن نتعلم كيف نعيد تركيزنا على الوقت الحاضر.

يقول مارك توين:

«لقد مررت ببعض الأُمور الصِّعاب في حياتي، ولقد حدث بعضها بالفعل، أي أنَّ كثيراً مِمَّا مررت به لم يحدث» كما أنَّ كثيراً

مِمَّا حدث لك بالفعل قد انتهى ولن يعود، وقلقك بشأنه لا معنى له.

إنَّكَ لا تستطيع أن تحمل ثلاثة هموم متراكمة في وقت واحد: همّ الماضي، وهمّ الحاضر، وهمّ المستقبل. فلا بُدَّ أن تختار منها واحداً؛ فهل تختار همَّ الماضي الَّذي ذهب ولن يعود؟ أم همَّ المستقبل الَّذي لم يأت بعد؟ إذن لم يبق سوى همَّ الحاضر.

إنَّ الماضي والمستقبل لا وجود لهما إلاَّ عندما تفكر فيهما، فهما من دُنيا الآراء والأفكار، وليسا من الواقع والأحداث، فلماذا نجهد أنفسنا في صنع الحسرات على الماضي، أو على المستقبل؟!

يقول أحد الكتَّاب: «إذا أردت أن تعيش سعيداً فعش يومك».

ويقول الشاعر:

ما مضى فات والمؤمل غيبٌ ولك الساعة الَّتي أنت فيها

أتعرف ماذا يعني أن تحمل همَّ الماضي والمستقبل؟

إنَّهُ يعني بدل أن تحمل همَّ الدقيقة الَّتي أنت فيها، فإنَّكَ تحمل همَّ ساعة كاملة، وبدل أن تحمل همَّ يومك الَّذي تعيشه، فإنَّكَ تحمل همَّ الشهر الَّذي مضى، والسنة القادمة.

فإذا كنت الآن تشعر بألم في ضرسك، تعمّم الألم وكأنَّكَ بدأت تشعر به منذ شهر وسوف تبقى تشعر به بعد شهر.. مِمَّا يزيد على ألمك الشعور بالتحسر، واليأس..

فلا تنبش في الماضي لتستخرج منه مشاكل قد انتهت، ولا تفترض لمستقبلك مشاكل، ربَّما لا تأتي.

أمّا آلام الحاضر فبدل أن تتوقع استمرارها في المستقبل فتصاب باليأس من شفائها، افترض زوالها، لأنَّ كُلَّ شيء إلى الزوال، ولربَّما يأتيك المستقبل بالخلاص منها.

لقد قال أحد الحكماء: «منتهى السعادة: أن لا تأسف على ما مضى لأنَّه ليس لك فيه حيلة».

وفي الحقيقة فإنَّهُ ليس في مقدور أحد أن يعيد الماضي، أو يقولب المستقبل. فالحاضر هو وحده ملكنا، وهو إذ كذلك فليس لمدة طويلة، ومتى جاوزناه فلن يعود ملكنا مرَّة ثانية، فلماذا نهتم بيومنا بعد أن يصبح ماضياً، حيث لا حيلة لنا فيه، وندع الاهتمام به وهو حاضر نملك كل التصرف فيه؟

يقول البعض: كيف تطالبنا بأن نعيش في الوقت الحاضر، بينما الوقت الحاضر قد يكون مثيراً لليأس والإحباط والقلق؟

ألا نجد أحياناً أنَّنا على موعد هام، فإذا بنا نتعطل في زحمة المرور مِمَّا قد يخسرنا الموعد وما يترتب على ذلك؟

أليس مثل هذا الحاضر هو بحدِّ ذاته مثيراً للقلق واليأس والتوتر؟

وأقول: إنَّ المطلوب هو أن نعيش في الحاضر، مع الإصرار على أن ننظر إلى الجوانب المشرقة منه.

فإذا توقفت في زحمة السير، فلماذا تفكر بالموعد الَّذي سوف تخسره، ولا تفكر في الفرصة المتاحة أمامك لكي تفكر مثلاً في أُمورك بعيداً عن الانشغال بالآخرين.

ولماذا لا تقول: «ولعلَّ الَّذي أبطأ عنِّي هو خير لي لعلمك بعاقبة الأُمور».

إنَّني أؤلف الكتب، وأحياناً يأتي أحد أولادي الصغار ويقطع عليَّ سلسلة تفكيري، ولكنَّني بدل أن أنظر إلى هذه المقاطعة باعتبارها (مزاحمة) أنظر إليها باعتبارها (استراحة) إجبارية عن العمل الجاد، والانشغال ببراءة الطفولة لفترة قصيرة بين الأعمال.

إنَّ كثيراً من الحوادث الَّتي تثير ضيقنا هي حوادث جميلة في حدِّ ذاتها، ولكن نظرتنا إليها يجعلها في نظرنا وكأنَّها قبيحة[١].

الصبر:

إنَّ الصبر على البلاء هو الأسلوب الموضوعي لمواجهته ومحاولة الاستفادة منه بروح إيجابية، ولذلك فقد ذكره القرآن الكريم بعد تعداد أنواع البلاء، فقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ (سورة البقرة: الآيات: ١٥٥ ـ ١٥٧)، وقال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (سورة البقرة: الآية: ٤٥).

وعن الإمام علي عليه السلام: «الصبر أدفع للبلاء» و«بالصبر تخفُّ المحنة»[٢].

والصبر هو: «الامتناع عن الشكوى على الجزع الكامن»[٣].

---

(١) كيف تتمتع بحياتك: ص٦٦.

(٢) ميزان الحكمة.

(٣) الأربعون حديثاً: ص٢٤٧.

فمهما عرض على الإنسان من مصائب وبليّات فإنَّ الصابر لا يشكو ولا يجزع أمام النَّاس، وأمَّا الشكاية إلى الله تعالىٰ فهي لا تتنافىٰ مع مقام الصبر، فإنَّ أيوب عليه السلام شكا إلى الله تعالىٰ حيث قال: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٍ وَعَذَابٍ﴾ (سورة ص: الآية: ٤١)، ومع ذلك قال الله في حقِّه: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ (سورة يوسف: الآية: ٨٦).

وقد ورد في الرِّوايات ذمّ الجزع، ومنها:

إنَّ النَّبي موسىٰ عليه السلام قال: في مناجاته: «أي ربِّ أي أحبُّ إليك؟

فقال الله تعالىٰ: «منْ إذا أخذت المحبوب منه سالمني،

قال؛: فأي خلقك أنت عليه ساخط؟

فقال تعالىٰ: من يستخيرني في الأمر فإذا قضيت له سخط قضائي»[1].

وفي الحديث القدسي: «وويل ثم ويلٌ لمن قال لِمْ وكيف»[2].

وهذا التفسير المذكور للصبر مطابق لما جاء في الحديث عن النَّبي صلى الله عليه وآله وقد سأل جبرائيل عليه السلام: ما تفسير الصبر؟ فقال: تصبر في الضرَّاء كما تصبر في السرَّاء، وفي الفاقة كما تصبر في العافية فلا يشكو حاله عند الخلق بما يصيب من البلاء».

وعن جابر: قلت لأبي جعفر عليه السلام: «يرحمك الله ما الصبر

---

(١) المقامات العالية: ص١٤٢.

(٢) المصدر نفسه.

الجميل؟ فقال ﷺ: ذلك صبر ليس فيه شكوىٰ إلى النَّاس»[1].

وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام كما في الحديث الشَّريف عن رسول الله ﷺ: «الصبر ثلاثة: صبر عند المصيبة، وصبر على الطاعة، وصبر عن المعصية»[2].

طرق تحصيل الصبر:

١ ـ لا يتحقق الصبر في الإنسان إلاَّ إذا عرف حقيقة الدُّنيا وما فيها من بلاء، فالرجل الروحاني الَّذي هو على فطرته الأصلية الموهوبة من الله عزَّ وجلَّ يصبر ويثبت في كُلِّ شيء، وتغلب قُوَّة روحه على المطلوبات الطبيعيَّة ولا يضطرب في الحوادث لأنَّهُ متحرر من حب الدُّنيا والنَّفس، وأمَّا الَّذي احتجب بالحجب النفسانيَّة وغلب على قلبه حب الدُّنيا فإنَّهُ يجزع من المصائب الواردة عنه.

والفارق بين الرؤيتين كما هو الفارق بين رؤية الإنسان للأشياء في الطفولة وعند البلوغ والكبر، فالكبير ينظر إلى الحلويات وألعاب الأطفال على غير ما ينظر إليها الطفل الصغير، فالكبير لا يحزن لفقدها بخلاف الطفل الَّذي يفرح لوجودها ويحزن لفقدها، والرجل الكبير يضحك على نفسه أنَّهُ كيف كان يحزن ويبكي على ألعاب الطفولة وهكذا كُلَّما ارتقى الإنسان في عقله وروحه كُلَّما نظر إلى الدُّنيا ورأى فيها أنَّها مجرد لعب ولهو[3]، وكما يقول القرآن الكريم: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾.

---

(١) ميزان الحكمة.

(٢) ميزان الحكمة.

(٣) جنود العقل والجهل: ص٣٣٠.

ولذا ورد عن رسول الله ﷺ أنَّهُ قال: «أيُّها النَّاس هذه دار ترح لا دار فرح، ودار إلتواء لا دار إستواء، فمن عرفها لم يفرح لرجاء ولم يحزن لشقاء».

وعنه ﷺ: «ومن زهد في الدُّنيا تهاون بالمصيـات».

٢ ـ أن يتذكر أنَّ البلاء من الله تعالىٰ الَّذي لا يريد بالإنسان إلاَّ ما هو خيرٌ له.

فعن الإمام علي عليه السلام: «أصل الصبر حسن اليقين بالله».

٣ ـ أن يتأمَّل في فوائد الصبر وعاقبته، ومضار الجزع وعاقبته، وأنَّهُ سواء أصبر أم جزع، فإنَّ القضاء نازل فيه، فصبره أجمل من جزعه.

فعن الإمام علي عليه السلام: «إنَّكَ إن صبرت جرت عليك المقادير وأنت مأجور وإنَّكَ إن جزعت جرت عليك المقادير وأنت مأزور».

يقول كارنيجي: «لقد قرأت خلال الأعوام الثمانية الماضية كل كتاب وكل مجلة وكل مقالة عالجت موضوع القلق، فهل تريد أن تعرف أحكم نصيحة وأجداها خرجت بها من قراءتي الطويلة إنَّها «إرض بما ليس منه بُدَّ».

قال أحدهم: «العاقل يفعل في أول يوم من المصيبة ما لا بُدَّ أن يفعله غيره بعد أيَّام».

وقال أحدهم: «إنِّي لأصاب بالمصيبة فأحمد الله عليها أربع مرَّات. ١ ـ أحمده إن لم تكن أعظم مِمَّا هي، ٢ ـ وأحمده إذ رزقني الصَّبر عليها، ٣ ـ وأحمده إذ وفقني للاسترجاع لما أرجوه من الثواب، ٤ ـ وأحمده إذ لم يجعلها في ديني».

يروى عن «بزرجمهر» لما حبسه «أنو شروان» عند غضبه عليه في بيت كالقبر ظلمة وضيقاً، وصفده بالحديد وألبسه الخشن من الصوف، وأمر أن لا يزاد على قرصين من شعير في كل يوم، وكف ملح جريشا ودورق ماء، وأن تحصى ألفاظه فتنقل إليه. فأقام بزرجمهر أياماً لا يتكلم فقال أنو شروان: ادخلوا إليه أصحابه وأمروهم أن يسألوه ويفاتحوه في الكلام واسمعوا ما يجري بينهم وعرفونيه. فدخل إليه جماعة من المختصين به وقالوا أيُّها الحكيم: نراك في هذا الضيق والحديد، والصوف والشدة الَّتي وقعت فيها، ومع هذا فإنَّ سحنة وجهك، وصحة جسمك على حالهما لم يتغيرا فما السبب في ذلك؟ فقال: إنِّي عملت جوارشا من ستة أخلاط آخذ منه في كل يوم شيئاً فهو الَّذي أبقاني على ما ترون. قالوا: فصفه لنا فعسى أن يبتلى بمثل بلواك من إخواننا أحد فيستعمله أو نصفه له. قال الخلط الأول: الثقة بالله عزَّ وجلَّ، والخلط الثاني: علمي إنَّ كل مقدر كائن، والخلط الثالث: إنَّ الصبر خير ما استعمله الممتحن، والخلط الرابع: إن لم أصبر فأي شيء أعمل، والخلط الخامس: قد يمكن أن أكون في أشد مِمَّا أنا فيه، والخلط السادس: من ساعة إلى ساعة فرج. قال فبلغ كسرى كلامه فعفا عنه.

٤ ـ أن يعوِّد نفسه على الصبر على المكاره والطاعات وترك المعاصي.

فعن الإمام علي عليه السلام: «عوِّد نفسك التصبُّر على المكروه»[١].

---

(١) نهج البلاغة.

يقول السيِّد هادي المدرِّسي حفظه الله:

«إنَّ الصبر حتماً من الصفات الاكتسابية، وليس من المواهب الَّتي لا دخل لإرادتنا فيها.

فمن يريد أن يصبر، فهو يستطيع أن يفعل ذلك، ومن لا يرغب في أن يصبر يقول: أنا لا أستطيع.

إنَّ الصبر من صفات القلب الَّتي يمكن زيادتها بدرجة كبيرة عن طريق الممارسة والتدريب المتعمد، وتتمثل إحدى الطرق الَّتي اكتشفت أنَّها تزيد من صبري في أن أجعل لنفسي فترات تدريب فعلية، أي فترات من الوقت وضعتها في عقلي للتدريب على فن الصبر، فالحياة ذاتها عبارة عن مدرسة يعتمد منهجها على الصبر.

إنَّكَ تستطيع أن تبدأ بقدر ضئيل من الوقت كخمس دقائق مثلاً للتدريب على الصبر، وهذا يكفي لإعطائك القدرة على الصبر مع مرور الوقت. ولتبدأ بأن تقول لنفسك: «حسناً.. في الخمس دقائق القادمة لن أسمح لأي شيء كان أن يضايقني وسوف أكون صبوراً»، إنَّ ما ستكتشفه سيكون مدهشاً فعلاً. فعزمك على أن تكون صبوراً، وبخاصة لو كان ذلك لبرهة قصيرة، سوف يقوّي من قدرتك على الصبر. إنَّ الصبر هو إحدى تلك الصفات الفريدة الَّتي تسبب للإنسان النجاح. وبمجرد أن تنجز نجاحاً صغيراً ـ خمس دقائق من الصبر ـ سوف تبدأ في رؤية أنَّكَ بالفعل تمتلك القدرة على الصبر، حَتَّى لو كان ذلك لفترات أطول من الزمن.

يقول أحد المؤلفين: عندي أطفال صغار وهذا يمنحني العديد

من الفرص للتدريب على فن الصبر، على سبيل المثال عندما تمطرني ابنتاي بوابل من الأسئلة، في الوقت الَّذي أنا مشغول فيه بإجراء مكالمة هاتفية هامَّة، أقول لنفسي: هاك فرصة عظيمة لأكون صبوراً. وللنصف ساعة القادمة سوف أتحلى بالصبر قدر المستطاع!

إنَّ ما أخبركم به هنا ينجح بالفعل، ولقد أتت ثماره في عائلتي فعندما أحتفظ برباطة جأشي، ولا أسمح لنفسي بالشعور بالضيق أو الانزعاج، فإنَّ باستطاعتي بهدوء ولكن بحزم، أن أوجه سلوك طفلتي بدرجة أكبر فاعلية مِمَّا لو كنت ثائراً. إنَّ مجرد توجيه عقلي كي يصبر، يسمح لي بأن أبقى منتبهاً للحظة الحاضرة مِمَّا لو كنت متضايقاً. وأفكر في كل الأوقات الَّتي حدث ذلك فيها وأشعر بأنَّني شهيد ذلك. علاوة على ذلك فغالباً ما يكون شعوري بالصبر معدياً إلى الآخرين فهو ينتقل إلى طفلتيَّ اللتين تقرران من تلقاء نفسيهما بأنَّهُ من الممتع إزعاج أبيهما.

إنَّ الشعور بالصبر يعطينا الفرصة الجيدة للاحتفاظ برؤيتنا الصائبة للأمور، ويمكننا أن نتذكر حَتَّى في غمار موقف عضال، بأنَّ التحدي الَّذي نواجهه في اللحظة الحاضرة ليس بمسألة (حياة أو موت) ولكن مجرد عقبة طفيفة علينا أن نتعامل معها ونتجاوزها، وبدون الصبر، فإنَّ نفس هذا الموقف يمكن أن يتحول إلى حالة طوارىء تامة بما تحتوي عليه من ضيق، وإحباط، ومشاعر مجروحة، وضغط دم مرتفع. إنَّ الأمر لا يستحق بالفعل كل ذلك.

فسواء كنت تحتاج إلى التعامل مع الأطفال، أو رئيسك في

العمل، أو شخص صعب وكنت لا ترغب في القلق بشأن (صغائر الأمور)، فإنَّ زيادة قدرتك على الصبر تعدك بداية رائعة لذلك[1].

يُحكى أنَّ حاتم الطائي ـ المشهور بالكرم ـ أراد المسير إلى عنترة ـ المشهور بالشجاعة ليتعلَّم منه الشجاعة، وفي نفس الوقت أراد عنترة المسير إلى حاتم ليتعلَّم منه الكرم وبينما هما في المسير التقيا وتعارفا فقال حاتم لعنترة، ما سرُّ شجاعتك؟ فقال عنترة: صبري، قال حاتم: وكيف؟ قال: يدك في يدي وأنا أضع يدي في يدك ولنبدأ بالشدّ، فشدَّ كلاهما يد الآخر فما مرَّت لحظات حَتَّى صرخ حاتم، فقال عنترة: ربَّما كنتُ متألماً قبلك لكني لم أصرخ بل صبَّرت نفسي.

ثمَّ قال لحاتم: وكيف أصبحت كريماً، فقال حاتم: أنا أفكِّر في أصل الجمل كيف أنَّه كان نطفة لا قيمة لها؟ فتزهد نفسي فيه.

٥ ـ أن ينظر في النُّصوص الَّتي تمدح الصبر وما فيه من الأجر والثواب في الآخرة والَّتي منها: قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ (سورة الرعد: الآيات: ٢٢ ـ ٢٤)، وقال تعالىٰ: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ (سورة الإنسان: الآية: ١٢).

عن الإمام الحسين عليه السلام: «جرَّبنا وجرَّب المجربُون فلم نرَ

(١) كيف تمتع بحياتك: ص٦٩.

شيئاً أنفع وجداناً ولا أضرَّ فقداناً من الصبر تُداوى به الأمور ولا يُداوى هو بغيره».

عن رسول الله ﷺ: «قال الله عزَّ وجلَّ: إذا وجهت إلى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه أو ماله وولده، ثمَّ استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القِيَامةِ أن أنصب له ميزاناً أو أنشر له ديواناً»[1].

عن الإمام الصَّادق عليه السلام: «قال رسول الله ﷺ: سيأتي على النَّاس زمان لا يُنال فيه المُلك إلاَّ بالقتل والتجبُّر، ولا الغنى، إلاَّ بالغصب والبخل، ولا المحبة، إلاَّ باستخراج الدِّين واتباع الهوىٰ، فمنْ أدرك ذلك الزَّمان فصبر على الفقر وهو يقدر على الغنى وصبر على البغضة وهو يقدر على المحبة وصبر على الذُّلِّ وهو يقدر على العز، آتاه الله ثواب خمسين صدِّيقاً مِمَّن صدَّق بي»[2].

عن حفص بن غيَّاث، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «يا حفص إنَّ من صبر صبر قليلاً، وإنَّ من جزع جزع قليلاً». ثمَّ قال عليه السلام: «عليك بالصبر في جميع أُمورك، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ بعث محمَّداً ﷺ فأمره بالصبر والرفق، فقال: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ (سورة المزمل: الآية: ١٠)، وقال تبارك وتعالىٰ: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ (سورة فصلت: الآيتان: ٣٥ ـ ٣٦).

---

(١) مسكن الفؤاد: ص٤٩.

(٢) الأربعون حديثاً: ص٢٥٢.

فصبر ﷺ حتّى نالوه بالعظائم، ورموه بها، فضاق صدره، فأنزل الله عزَّ وجلَّ عليه: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ (سورة الحجر. الآيتان: ٩٧ ـ ٩٨)، ثمّ كذّبوه، ورموه، فحزن لذلك، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝٣٣ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣٤﴾ (سورة الأنعام: الآيتان: ٣٣ ـ ٣٤).

فألزم النَّبيُّ ﷺ نفسه الصبر فتعدوا فذكروا الله تبارك وتعالىٰ وكذّبوه، فقال ﷺ: قد صبرت في نفسي وأهلي وعرضي ولا صبر لي على ذكر إلٰهي، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ (سورة ق: الآية: ٣٩)، فصبر في جميع أحواله، ثمَّ بشّر في عترته بالأئمّة، ووصفوا بالصبر، فقال جلَّ ثناؤه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (سورة السجدة: الآية: ٢٤).

فعند ذلك قال ﷺ: «الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد فشكر الله عزَّ وجلَّ ذلك له، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ (سورة الأعراف: الآية: ١٣٧)، فقال ﷺ: إنَّهُ بشرى وانتقام، فأباح الله عزَّ وجلَّ له قتال المشركين، فأنزلَ الله: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ (سورة التوبة: الآية: ٥)، ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ

﴿حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ﴾ (سورة البقرة: الآية: ١٩١)، فقتلهم الله على أيدي رسول الله ﷺ وأحبَّائه، وجعل له ثواب صبره مع ما ادَّخر له في الآخرة، فمن صبر واحتسب لم يخرج من الدُّنيا حَتَّى يقرُّ الله عينه في أعدائه، مع ما يدَّخر له في الآخرة»[1].

عن الإمام الصَّادق عليه السلام: «الصبر يُظهر ما في بواطن العباد من النُّور والصفاء، والجزع يظهر ما في بواطنهم من الظلمة والوحشة، والصبر يدَّعيه كُلُّ أحد، ولا يثبت عنده إلاَّ المخبتون، والجزع ينكره كُلُّ أحد وهو أبين على المنافقين، لأنَّ نزول المحنة والمصيبة يخبر عن الصَّادق والكاذب، وتفسير الصبر ماء يستمرُّ مذاقه، وما كان عن اضطراب لا يسمَّىٰ صبراً، وتفسير الجزع اضطراب القلب وتحزُّن الشخص، وتغيُّر السكون، وتغيُّر الحال. وكُلُّ نازلة خلت أوائلها من الإخبات والإنابة والتضرُّع إلى الله تعالىٰ فصاحبها جزوع غير صابر.

والصبر ماء أوَّله مرٌّ وآخر حلو، من دخله من أواخره فقد دخل ومن دخله من أوائله فقد خرج، ومن عرف قدر الصبر لا يصبر عمَّا منه الصبر، قال الله عزَّ وجلَّ في قصَّة موسىٰ والخضر عليهما السلام: ﴿وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا﴾ (سورة الكهف: الآية: ٦٨)، فمن صَبَرَ كرهاً ولم يشكُ إلى الخلق، ولم يجزع بهتك ستره، فهو من العامِّ، ونصيبه ما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي بالجَنَّة والمغفرة، ومن استقبل البلاء بالرحب، وصبر على سكينة ووقار [فهو] من الخاصِّ ونصيبه ما قال الله

---

(١) الصبر في الإسلام: ص١٥٧.

عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (سورة الأنفال: الآية: ٤٦)(١).

عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «دخل أمير المؤمنين عليه السلام المسجد، فإذا هو برجل على باب المسجد كئيب، حزين، فقال له أمير المؤمنين صلوات الله عليه: مالك؟ قال: يا أمير المؤمنين أُصِبْتُ بأبي وأخي، وأخشىٰ أن أكون قد وجلت، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: عليك بتقوى الله، والصبر تَقدُمْ عليه غداً، والصبر في الأُمور بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا فارق الرأس الجسد فسد الجسد، وإذا فارق الصبر الأُمور فسدت الأُمور»(٢).

٦ ـ أن يتيقن أنَّ الصبر يعقبه النصر، وأنَّه مهما طال البلاء فلا بُدَّ وأن ينجلي.

قال الله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾.

يقول أحدهم:

إذا اشتدت بك العسرى ... ففكر في «ألم نشرح»
فعسرٌ بين يسرين ... إذا فكرته فافرح

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنَّ النصر مع الصبر، والفرج مع الكرب، وإنَّ مع العسر يسراً».

عن الإمام علي عليه السلام: «لا يُعدم الصبور الظفر وإن طال به الزَّمان»(٣).

---

(١) المصدر السابق: ص١٦٦.
(٢) المصدر السابق: ص١٥٩.
(٣) ميزان الحكمة.

وعنه ﷺ: عند تناهي الشدَّة تكون الفرجة، وعند تضايق حلق البلاء يكون الرخاء»[1].

ولذا ورد أنَّ الرَّسول ﷺ كان يقول: «تضايقي تنفرجي».

ويذكر القرآن الكريم عاقبة صبر النَّبي أيوب عليه السلام، فيقول: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (سورة ص: الآية: ٤٣).

ويعجبني أن أذكر هنا رواية طريفة بشأن صبر يعقوب وآبائه عليهم السلام:

فقد ورد في الأثر: «لمَّا كان من أمر إخوة يوسف ما كان، كتب يعقوب عليه السلام إلى يوسف عليه السلام وهو لا يعلم أنَّه يوسف:

بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم من يعقوب إسرائيل الله ابن إسحاق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله عزَّ وجلَّ إلى عزيز آل فرعون سلام عليك، فإنِّي أحمد إليك الله الَّذي لاَ إلٰهَ إلاَّ هو، أمَّا بعد: فإنَّا أهل بيت مولعة بنا أسباب البلاء: كان جدِّي إبراهيم أُلقي في النَّار في طاعة ربِّه، فجعلها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عليه برداً وسلاماً، وأمر الله جدِّي أن يذبح أبي ففداه بما فداه به، وكان لي ابن وكان من أعزَّ النَّاس عليَّ ففقدته، فأذهب حزني عليه نور بصري، وكان له أخ من أُمِّه، فكنت إذا ذكرت المفقود ضممت أخاه هذا إلى صدري، فأُذهب عنِّي بعض وجدي، وهو المحبوس عندك في السرقة، وإنِّي أُشهدك أنِّي لم أسرق ولم ألد سارقاً. فلمَّا قرأ يوسف كتابه بكىٰ، وكتب إليه:

---

(١) ميزان الحكمة.

بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم اصبر كما صبروا تظفر كما ظفروا. فلمَّا انتهىٰ الكتاب إلى يعقوب قال: والله ما هذا بكلام الملوك والفراعنة، بل هو كلام الأنبياء وأولاد الأنبياء، فحينئذٍ قال: يا بنيَّ اذهبوا فتحسَّسوا من يوسف»(١).

ويذكر القرآن الكريم عاقبة صبر النَّبي يعقوب عليه السلام وكيف ردَّ الله عليه ولده يوسف عليه السلام، قال الله تعالىٰ: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (سورة يوسف: الآية: ٨٣).

كما يذكر عاقبة النَّبي يوسف عليه السلام ووصوله إلى مقام العزِّ في الدُّنيا والآخرة، قال الله تعالىٰ: ﴿قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (سورة يوسف: الآية: ٩٠).

عن أبي بصيرٍ قال: «سمعت أبا عبد اللَّهِ عليه السلام يقول: «إنَّ الحُرَّ حُرٌّ على جميع أحواله، إن نابته نائبة صبر لها، وإنْ تداكَّتْ عليه المصائب لم تكسرْهُ، وإنْ أُسِرَ وقُهِرَ، واسْتُبْدِل باليُسْرِ عُسْراً، كما كان يوسف الصِّدِّيق الأمين لم يُضْرِرْ حريَّته أن استُعْبِدَ وقهر، وَأُسِرَ ولم تُضْرِرْهُ ظُلْمة الجُبِّ ووحْشَته وما ناله أنْ مَنَّ الله عليه فجعل الجبَّار العاتِي له عبْداً بعد إذ كان [له] مالكاً، فأرسله ورحم به أمَّة وكذلك الصَّبر يعقِّب خيْراً فاصْبِروا ووطِّنوا أنفسكم على الصَّبر تؤجروا»(٢).

---

(١) تزكية النَّفس: ص٤٢٩.
(٢) الأربعون حديثاً: ص٢٤٠.

قال الشاعر:

وَمَـا هَـذِهِ الأَيَّـام إلاَّ مَـنَـازِلٌ فَمِنْ مَنْزِلٍ رَحْبٍ إلَىٰ مَنْزِلٍ ضَنْكِ
وَقَدْ دَهَمَتْكَ الْحَادِثَاتُ وَإنَّمَا صَفَا الذَّهَبُ الإبْرِيزُ قَبْلَكَ بِالسَّبْكِ
أَمَا فِي نَبي اللّه يُوسُفَ أُسْوَة لِمثِلكَ محبُوساً عَنِ الظُّلْمِ والإفْكِ
أَقَامَ جَمِيلَ الصَّبر فِي السِّجنِ برهةً فآلَ بِهِ الصَّبْرُ الجَمِيلُ إلَىٰ الْمُلْكِ

يقول الشاعر:

إصبر يسيراً وكن باللّه معتصماً ولا تعاجل فإنَّ العجز بالعجل
الصبر مثل اسمه في كل نائبةٍ لكن عواقبه أحلى من العسل

وقال آخر:

أما والَّذي أبكى وأضحك والَّذي أمات وأحيىٰ والَّذي ما له كفو
لئن بدء الصبر مُرّاً مذاقه لقد يُجتنىٰ من بعد الثمر الحلو

يقول آية الله السيِّد الخميني قدِّس سرُّهُ:

«اعلم أنَّ للصَّبر نتائج كثيرة الَّتي منها ترويض النَّفس وتربيتها: إذا صبر الإنسان حيناً من الوقت على المفاجئات المزعجة ونوائب الدَّهر، وعلى مشاق العبادات والمناسك وعلى مرارة ترك الملذَّات النفسيَّة امتثالاً لأوامر وليّ النعم، وتَحَمُّل الصِّعاب مهما كانت شديدة ومؤلمة، تروضت النَّفس شيئاً فشيئاً، واعتادت وتخلَّت عن طغيانها، وتذلَّلت صعوبة تحمُّل المشاق عليها، وحصلت للنفس ملكة راسخة نورية، بها يتجاوز الإنسان مقام الصَّبر ليبلغ المقامات الأخرى الشامخة. بل إنَّ الصَّبر على المعصية يبعث على تقوى النَّفس، والصَّبر على الطاعة يسبب الاستيناس بالحقِّ عزَّ وجلَّ، والصَّبر على البلايا يوجب الرضا بالقضاء الإلٰهي، وكل ذلك من

المقامات الشامخة لأهل الإيمان، بل لأهل العرفان. وقد ورد في الأحاديث الشَّريفة عن أهل بيت العصمة ثناءٌ بليغٌ على الصَّبر. كما في الكافي الشَّريف عن الإمام الصَّادق عليه السلام:

قَالَ: «الصَّبر من الإيمان بمنزلة الرّأس مِن الجسد فإذا ذهب الرّأس، ذهب الجسد، وكذلك إذا ذهب الصّبر، ذهب الإيمان».

وفي حديث آخر عن الإمام السَّجَّاد علي بن الحسين عليه السلام: قَالَ: «الصَّبر من الإيمان بمنزلة الرّأس من الجسد ولا إيمان لمن لا صَبْرَ له».

والأحاديث كثيرة في هذا الباب. ونحن سنأتي على ذكر بعضها عند توفر المناسبة.

إنَّ الصَّبر مفتاح أبواب السعادات، وباعث للنجاة من المهالك بل الصَّبر يهوِّن المصائب، ويخفِّف الصِّعاب، ويقوي العزم والإرادة، ويبعث على استقلالية مملكة الرُّوح، وأمَّا الفزع والجزع فمضافاً على أنَّهُ عيب، وكاشف عن الضعف في النَّفس، يجعل الإنسان مضطرباً، والإرادة ضعيفة والعقل موهوناً.

يقول المحقق الخبير الخواجة نصير الدِّين الطوسي:

«وهو ـ أي الصَّبر ـ يمنع الباطن عن الاضطراب، واللّسان عن الشّكاية، والأعضاء عن الحركات غير المعتادة».

وعلى العكس فإنَّ الإنسان غير الصابر، قلبه مضطرب، وباطنه موحش ونفسه قلقة ومهزوزة. وهذا بنفسه بليَّة فوق جميع البلايا، ومصيبة من أعظم المصائب الَّتي تحلُّ بالإنسان، وتسلب منه الراحة والقرار. وأمَّا بالصبر فتخفُّ الرزيَّة، ويتغلَّب القلب على النوائب

والبلايا، وتنتصر إرادة الإنسان على المصائب. ولذا نجد الإنسان غير الصبر، يشكو عند من هو أهل للشّكاية، وهذا الأمر زائداً على أنَّهُ يؤدّي إلى الفضيحة لدى النَّاس. والاشتهار بالضعف بينهم وعدم الجلادة، فإنَّهُ يسقطه في أعين النَّاس ويحطُّ من كرامته لدى ملائكة الله، وأمام جلال القدس الربوبي.

إنَّ العبد الَّذي لا يتحمَّل مصيبة واحدة نازلة عليه من الحقّ المتعالي والحبيب المطلق والَّذي إذا واجه بليَّة واحدة رفع صوته بالشكوى من وليِّ نعمه أمام المخلوق، رغم نزول البركات عليه وتلقِّيه آلاف آلاف النعم، مثل هذا العبد أيُّ إيمان له؟ وأي تسليم له أمام المقام القدسي للحق؟ فيصحُّ أن يُقال: من لا صبر له لا إيمان له. لو كنت مؤمناً بالحضرة الربوبيّة، ورأيت بأنَّ مجاري الأُمور بيد قدرته الكاملة، ولا يكون لأحد يد في الحوادث والأُمور، لما اشتكيت من حوادث الأيَّام والبليَّات أمام غير الحقِّ تعالىٰ، بل لاستقبلتها بكُلِّ حفاوة وتكريم وشكرت نعم الحقِّ سبحانه.

فكُلُّ الاضطرابات النفسيَّة والشكاوىٰ اللِّسانيَّة والحركات الغير اللائقة والغير المعتادة للأعضاء، تشهد بأنَّنا لسنا من ذوي الإيمان، فما دامت النعمة موفورة، شكرنا ربّنا شكراً ظاهرياً لا لبّ له، بل يكون لأجل طمع الزيادة، وحينما تواجهنا مصيبة واحدة أو يحلُّ بنا ألم ومرض، اشتكينا من الحقِّ المتعالي لدى النَّاس وغمزنا فيه، واعترضنا عليه، وأبدينا الشكوى أمام كل من هو أهل ومن هو ليس بأهل وتحوَّل الشكاوىٰ والجزع والفزع في النَّفس إلى بذور البغض تجاه الحق والقضاء الإلٰهي، ثمَّ ينمو شيئاً فشيئاً ويشتدُّ حَتَّىٰ يتحوَّل إلى ملكة، بل

ـ لا سمح الله ـ تتحوّل الصورة الداخلية للذات صورة البغض لقضاء الحق، والعداء للذات المقدّس. وحين ذلك يفلت الزمام من اليد، ويزول الاختيار عن الإنسان، ولا يستطيع أن يفعل شيئاً لتحسين الوضع وضبط الأوهام، ويتلّون الظاهر والباطن بلون العداء للحقّ سبحانه وتعالىٰ، وينتقل من هذا العالم وهو قطعة من البغض والعداء لمالك النعم، فيبتلي بالشقاء الأبدي والظلام الدائم. وأعوذ بالله من سوء العاقبة والإيمان المستعار المستودع. فيكون كلام المعصوم عليه السلام صحيحاً حيث يقول: عندما يذهب الصَّبر يذهب الإيمان.

فيا أيُّها العزيز إنَّ الموضوع خطير، والطريق محفوف بالمخاطر، فأبذل من كل وجودك الجهد واجعل الصَّبر والثبات من طبيعتك، أمام حوادث الأيَّام وانهض أمام النكبات والرزايا، ولقّن النَّفس بأنَّ الجزع والفزع مضافاً إلى أنَّه عيب فادح، لا جدوى من ورائه للقضاء على المصائب والبليَّات، ولا فائدة من الشكوى على القضاء الإلٰهي وعلى إرادة الحق عزَّ وجلَّ أمام المخلوق الضعيف الَّذي لاَ حول له ولاَ قُوَّة.

كما أشير إلى ذلك في الحديث الشَّريف المنقول في الكافي:

«محمد بن يعقوب بإسناده عن سماعة بن مهران، عن أبي الحسن عليه السلام قال: قال لي: ما حبسك عن الحجّ؟ قال: قلت: جعلت فداك، وقع عليَّ ديْن كثير وذهب مالي، وديْني الَّذي قد لزمني هو أعظم من ذهاب مالي، فلولا أنّ رجلاً من أصحابنا أخرجني ما قدرت أن أخرج، فقال لي: إنْ تصبِر تُغتبط وإلّا تصبر يُنفذ الله مقاديره راضياً كنت أم كارهاً».

فاعلم بأنَّ الجزع والفزع لا يجديان، بل لهما أضرار سخيفة ومهالك تنسف الإيمان. وأمَّا الصَّبر والجلادة فلهما الثواب الجزيل والأجر الجميل والصورة البهيَّة البرزخيَّة الشَّريفة كما ورد في ذيل الحديث الشَّريف الَّذي نحن بصدد شرحه حيث يقول: «وكذلك الصَّبر يُعقِّب خيراً فاصبروا ووطِّنوا أنفسكم على الصَّبر تُؤجروا». فعاقبة الصَّبر إلى خير في هذه الدُّنيا كما يستفاد من التمثيل بالنَّبي يوسف عليه السلام ـ في الحديث المذكور ـ ويبعث على الأجر والثواب في يوم الآخرة.

وفي الحديث الشَّريف المنقول في الكافي بسنده إلى ابن حمزة الثمالي ـ رحمه الله ـ قال: «مَنِ أُبتليَ من المؤمنين ببلاءٍ فصبر عليه كان له مثل أجْر ألْف شهيدٍ».

ووردت أحاديث كثيرة في هذا المضمار. ونحن سنذكر بعضها في الفصل القادم. وأمَّا أنَّ للصبر صورة بهيَّة برزخيَّة، فمضافاً إلى أنَّها تتطابق مع بعض الأدلة نجد الأحاديث الشَّريفة أيضاً تتحدث عنها. كما في الكافي الشَّريف عن الإمام الصَّادق عليه السلام قال: «إذا دخل المؤمن في قبره كانت الصَّلاة عن يمينه والزَّكاة عن يساره والبرُّ مُطلٌّ عليه ويتنحّى الصَّبر ناحية، فإذا دخل عليه المَلَكان اللّذان يليان مُساءلته قال الصَّبر للصَّلاة والزَّكاة والبِرّ: دونكم صاحبكم فإن عجزتم منه فأنا دونه»[1].

أن يتعرف على أحوال الصابرين:

قال الله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل

---

(١) الأربعون حديثاً: ص٢٤٨.

لَّهُمْۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴿٣٥﴾﴾ (سورة الأحقاف: الآية: ٣٥).

ففي الآية خطاب لرسول الله ﷺ بالصبر على أذية قريش كصبر أولي العزم من الرُّسُل الَّذين هم: نوح وإبراهم وموسىٰ وعيسىٰ عليهم السلام، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴿٣٤﴾﴾ (سورة الأنعام: الآية: ٣٤).

ونحن مأمورون أن نتأسىٰ برسول الله ﷺ حال المصيبة لتهون.

فعن رسول الله ﷺ أنَّهُ قال في مرض موته: «أيُّها النَّاس أيَّما عبدٍ من أُمَّتي أُصيب بمصيبة من بعدي فليتعزَّ بمصيبته بي عن المصيبة الَّتي تصيبه بغيري، فإنَّ أحداً من أُمَّتي لن يُصاب بمصيبة بعدي أشدّ عليه من مصيبتي»[1].

يقول الشاعر:

اصبر لكل مصيبة وتجلَّد   واعلم بأنَّ المرء غير مخلَّد
أو ما ترى أنَّ الحوادث جمَّة   وترى المنيَّة للرِّجال بمرصد
فإذا ذكرت مصيبة تجشى بها   فاذكر مصابك بالنبي محمَّد

صبر النبي أيوب (ع):

يعتبر النبي أيوب عليه السلام نموذجاً للصبر والتحمُّل والرضى ببلاء

---

(١) الأربعون حديثاً: ص٢٤٨.

الله تعالىٰ له، فبالرغم من اجتماع كل مصائب الدُّنيا إلاَّ أنَّهُ تحملها بكُلِّ خضوع وتسليم حَتَّى مدحه الله تعالىٰ بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ (سورة ص: الآية: ٤٤).

عن الإمام الصَّادق عليه السلام: «إنَّ أيوب عليه السلام مع جميع ما ابتلى به لم تنتن له رائحة ولا قبحت له صورة ولا خرجت منه مدة ولا دم ولا قيح ولا استقذره أحد رآه ولا استوحش منه أحد شاهده ولا تدود شيء من جسده، وهكذا يصنع الله عزَّ وجلَّ بمنْ يبتليه من أنبيائه وأوليائه المكرمين عليه، وإنَّما اجتنبه النَّاس لفقره وضعفه في ظاهر أمره، لجهلهم بما له عند ربه تعالىٰ ذكره، من التأييد والفرج».

صبر النبي إسماعيل وإدريس وذو الكفل (ع):

قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (سورة الأنبياء: الآية: ٨٥).

وأمَّا صبر إسماعيل فهو معروف وفي القرآن مسطور فقد صبر على الذبح امتثالاً لأمر الله تعالىٰ، وأمَّا صبر إدريس وذو الكفل فهو على الدعوة إلى الله تعالىٰ وتحمُّل الأذى في جنبه.

صبر الإمام الحسين (ع):

يعتبر سيِّد الشُّهداء الإمام الحسين عليه السلام نموذجاً فريداً في الصَّبر والرضى بأمر الله تعالىٰ فهو الَّذي صبر على الهجرة والجهاد والشهادة، وهو الَّذي صبر على قتل أولاده وإخوته وبني عمومته وأصحابه، بل أنَّهُ لم يكن صابراً فحسب بل كان راضياً مُسلِّماً قائلاً: «إلٰهي إن كان هذا

يرضيك فخذ حَتَّىٰ ترضىٰ» و«هوّن ما نزل بي أنَّهُ بعين الله» و«صبراً على قضائك يا رب لاَ إلٰهَ سواك يا غياث المستغيثين».

صبر السيِّدة زينب (ع):

تعتبر السيِّدة زينب عليها السلام من أبرز النِّساء اللواتي تحمَّلنَّ مرارات الابتلاء والأحزان والمصائب حَتَّى عُرفت في التاريخ بـ«أمّ المصائب» فمنذ طفولتها وحَتَّى آخر لحظة من حياتها كانت تعيش المحن والمصائب، فقد عاشت وفاة جدِّها المصطفى وأبيها المرتضى وأُمِّها الزَّهراء وأخويها الحسن والحسين عليهما السلام، وقد أعطت أعظم الدروس في الصَّبر في واقعة كربلاء وما بعدها، فمع ما رأت من قتل أخوتها وولديها، ومع ما جرى من حرق الخيم والعطش وخوف الأطفال إلاَّ أنَّها كانت المرأة الصامدة الصابرة الَّتي لم تظهر بمظهر الضعف والذُّلِّ والإنكسار وإنَّما كانت العزيزة القوية.

صبر العلماء

صبر السيِّد الخميني رضوان الله عليه:

من أبرز الصفات الَّتي امتاز بها السيِّد الخميني هي الصَّبر إزاء المحن والخطوب، وهو الَّذي عصفت به الابتلاءات الكبيرة على اختلاف أنواعها.

لقد كان ثابتاً كالطود الشامخ، بحيث أنَّهُ لم يعتره الاضطراب بل أنَّ الطمأنينة الَّتي كانت في داخله تبعث القُوَّة والدفء في قلوب الَّذين معه.

لقد استشهد ولده السيِّد مصطفى ـ وكان عالماً تُعقد عليه الآمال ـ إلاَّ أنَّه لم يهتزُّ لذلك بل واصل برنامجه اليومي من التدريس والعبادة وكأنَّ شيئاً لم يحدث.

صبر السيِّد محمد باقر الصدر قدّس سرّه:

يروي سماحة الشيخ النعماني (دام عزّه) والَّذي ظلَّ ملازماً للشهيد الصدر قدّس سرُّه حَتَّى يومه الأخير قائلاً: «من المواقف الَّتي لا زالت تؤثر في نفسي ولن أنساها: هو أنَّهُ بعد مضي مدة من الحجز قامت السلطة العميلة بقطع الماء والكهرباء والتلفون، ومنعت دخول وخروج أي إنسان إلى بيت السيِّد حَتَّى خادم السيِّد، وقد نفذت المؤونة، خلال فترة قصيرة، ولم يبق عندنا إلاَّ صندوق من الخبز اليابس التالف. فبدأت عائلة السيِّد ترتب هذا الخبز اليابس كطعام شعبي (يعرفه العراقيون بالمثرودة) وبقينا مدَّة علىٰ هذه الحال، وفي يوم من الأيَّام كنت بخدمة السيِّد الشهيد ظهراً نتغدىٰ في ساحة البرَّاني، لاحظ السيِّد الشهيد في وجهي التأثُّر والتألُّم، إذ كان يعزُّ عليَّ أن أرىٰ هذا الرجل العظيم علىٰ هذه الحال! فقال لي: والله إنَّ ألذَّ طعام ذقته في حياتي هو هذا.

قلت كيف؟

قال: لأنَّه في سبيل الله ومن أجل الله...».

صبر السيِّد محمد صادق الصدر قدّس سرُّهُ:

كان رحمه من أشدِّ النَّاس بلاءً في حياته فقد عانى الكثير من الظلم والاضطهاد كما عانى من مرض جلدي في جسده ومع ذلك فقد كان معروفاً بالرضى والتسليم.

قال له أحدهم: سيِّدنا بالإمكان أن أجلب لك علاجاً من خارج البلاد فقال له السيِّد: لا يعيقني عن عبادة أو كتابة وأنا أحب أن ألقى الله على هذه الحال.

وسأله أحدهم أن يدعو له لمرض أصيب به فقال السيِّد: هل أنَّ المرض رحمة؟ فقال: نعم، فقال السيِّد: فإذا كان رحمة فكيف تسألني أن أدعو لك.

صبر الشيخ علي القمِّي رحمه الله:

العالِم الورع الشيخ علي القمِّي النجفي، عرفته النجف وعلماؤها بزهده العجيب، وكان مثالاً للصبر على البلاء. شديداً في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا تأخذه في الله لومة لائم، بذلك اشتهر بين النَّاس، واتفقت كلمة أهل العلم والدِّين أنَّه أورع وأتقى وأعدل علماء عصره، حَتَّى لقَّبوه بـ«الزاهد». كان يصلي الجماعة في مسجد (الهندي) فتأتم به جموع غفيرة، ويتسابق من درْك صلاته صفوة العلماء وأهل الفضل. كان شديد الصَّبر لم يألفه صبر أهل زمانه، فقد توفي ولده في النجف ولم يجزع، ولما عاد من دفنه، وصله خبر بوفاة ولده الآخر في إيران (الشيخ شريف)، فخرَّ ساجداً لله، ومجلس الفاتحة الَّذي أقامه للأوَّل صار للإثنين. وكان يشكر الله على ما يصيبه من بلاء، ويعتقد بأنَّهُ اختبار للعبد وتمحيص لذنوبه ـ كما هو مفاد الرِّوايات أيضاً ـ.

ومن بلائه الَّذي شهد له الجميع بصبره العجيب عليه، مرضه الَّذي توفي فيه. فقد أُصيب في المجاري البولية، وأُجريتْ له عملية لم تُجْدِه وصُنِع له مجرىً بول من خاصرته، كما ودهبوا به إلىٰ إيران

غير مرة، فلم ينفعه علاجٌ أبداً، فظلَّ أسير هذا المرض ورهن المنزل نحو عشر سنين، وكان يزوره العلماء والأخيار والمحبُّون وسائر المؤمنين، فلم يسمع منه أحد من زائريه ولا من ممرِّضيه في بيته خلال تلك السنين وهو في حالة يُرثىٰ لها كلمة تشمُّ منها رائحة الجزع أو السأم أو الشكوىٰ مطلقاً. بل كان لسانه يلهج بالحمد والشكر والرضا بأمر الله وقضائه وقدره.

صبر السيِّد أبو الحسن الأصفهاني قدِّس سرُّه:

ينقل أنَّه رحمه الله قد ابتلي بقتل ولده وفلذة كبده ابنه السيِّد حسن الَّذي كان من أهل العلم والفضل والنجابة وساعد والده في شؤون المرجعية، قتله في أواخر سنة ١٣٤٨هـ رجل كان قد طلب من والده زيادة على حقِّه مِمَّا يأخذه من أموال الفقراء وطلبة العلم فحملته نفسه الشريرة علىٰ الانتقام من السيِّد الأصفهاني بقتل ولده الفاضل ومُعينه في أموره. فأخذ سكيناً وشحَّذها وجاء إليه وهو يؤدِّي التعقيبات بعد ما صلَّىٰ صلاة المغرب خلف والده في الصحن العلوي الشَّريف والصحن مملوء عن آخره بالمصلِّين خلف والده وذبحه ذبح الشاة علىٰ غرة من أمر الجميع وفرَّ إلىٰ مخفر للشرطة قريب من باب الصحن خوفاً من أن يقتل ويقطع إرباً إرباً من قبل الجمهور الغاضب فحكم عليه بالسجن لأنَّ السيِّد الأصفهاني عفىٰ عنه بوصفه صاحب الدم فسلم من عقوبة الإعدام، إنَّها كانت فاجعة عظيمة نادرة المثيل، ورثاه جماعة وعزُّوا به والده بقصائد.

غير أنَّ هذه الفاجعة الَّتي ألمَّت بالجميع وأثارت الحسرات والآهات وفجرت كوامن السخط والغضب والنفور تجاه المجرم

الآثم قد زادت من شعبية ومكانة السيِّد الأصفهاني بسبب تصرفه الحكيم الَّذي يشبه تصرف الأنبياء والأولياء وهو عفوه عن قاتل ابنه وفلذة كبده والتغاضي عن كل حق له وحَتَّى أنَّهُ كان يساعد قاتل ابنه مالياً وهو في السجن.

صبر الشيخ جواد ملكي التبريزي رحمه الله:

كان لآية الله ميرزا جواد الملكي التبريزي رحمه الله صبيٌّ يودّه كثيراً، ففي يوم عيد الغدير حيث كان جالساً مع ضيوفه سمع نياح خادمة البيت وإثره صياح النِّساء في ساحة المنزل، فجاء وتفاجأ بجنازة ولده العزيز، إذ كان غارقاً في حوض المنزل. فأسكت النِّساء وطلب منهنَّ عدم النياح بصوت يعكِّر صفو الضيوف.

ولما انتهىٰ من استضافتهم وودَّعوه أشار إلىٰ أقربهم إليه صداقةً فأبقاه ليساعده في تجهيز ولده العزيز من الغسل والكفن والصَّلاة والدفن.

صبر الشيخ محمد حسن النجفي قدِّس سرُّه:

عهد المجتهد الكبير آية الله العظمىٰ الشيخ محمد حسن النجفي رحمه الله علىٰ نفسه أن يكتب كُلَّ ليلة قسطاً من كتابه الفقهي الاستدلالي الكبير المعروف بـ(جواهر الكلام) الَّذي يعتبر عند الفقهاء من أهم مصادر البحث العلمي في الفقه الإسلامي.

ففي تلك الليلة الَّتي مات فيها ابنه العزيز، حضر جنازته وبيده قلمه وأوراقه، يكتب أسطراً من الكتاب ودموعه منهمرة على لحيته البيضاء، والحزن يعصر قلبه على ذلك المصاب الجلل.

يقول الشيخ عبَّاس القمي (صاحب كتاب مفاتيح الجنان):

«حدثني الشيخ الفقيه الحاج ميرزا حسين بن الميرزا خليل الطهراني أنَّه كان لصاحب الجواهر ولد رشيد، اسمه الشيخ حميد، وكان متكفلاً بكُلّ أُمور والده، والشيخ صاحب الجواهر متفرغاً لتأليف كتابه الفقهي ولا يحمل همَّ الأُمور المعاشية، فتوفي ولده هذا دفعةً. فحزن عليه الشيخ وقال: انقطعت بي الأسباب، وضاق صدري وضاقت الدُّنيا في عيني، صرت لا استقر ليلاً ولا نهاراً، دائم التفكُّر، مضطرب القلب حزيناً كئيباً، وبينما أنا كذلك وقد خرجت من مجلس كنت فيه أول اللَّيل، وأنا متوجه إلى البيت؛ إذ نوديتُ من خلفي: لا تكفَّر، لك الله، فالتفتُّ من حولي لم أرَ أحداً، فحمدت الله تعالىٰ وتوجهتُ إليه، ففُتِحتْ عليَّ بعد تلك الليلة أبواب رحمته، وانتظمْت أُموري وترقَّتْ أحوالي»[1].

الشيخ حسين آل نجف:

يقول الشيخ الحكيمي عنه: «كان رحمه الله لا فرق عنده بين أن يُقال له جاءك ولد أو يُقال مات ولدك واشتهر عنه أنَّهُ لمَّا مات ولده وكانت وفاته قريبة من صلاة الصبح والنَّاس في حزن وعزاء أنَّه أخذ عصاه قاصداً المسجد، واشتهر عنه أنَّه عنده سيَّان حالة الضيق والرخاء والعافية والبلاء.

وما يؤثر عنه أنَّهُ ذهبت إحدىٰ عينيه مدَّة عشرين سنة أو أكثر ولم يعلم بذلك أحد».

---

(١) لاحظ: «قصص وخواطر».

صبر الشهيد الأول:

كان الشهيد الأول في السجن فكتب في بعض الليالي: «ربِّ إنِّي مظلوم فانتصر» فوجد في اليوم الثاني على الورقة: «إن كنت عبدي فاصطبر».

الرّضا:

هذا: «وليُعلم إنَّ الصَّبر بحسب هذه المرتبة من مقامات المتوسطين، لأنَّ النَّفس ما دامت تكره الواردات من جانب الحقّ تعالىٰ وتجزع منها في كمونها وبطونها فمقام معارفها وكمالاتها ناقص، والكمال الأرفع من هذا المقام مرتبة الرضا بالقضاء»[1].

فالصبر قد يكون على ما تكرهه النفس أمَّا الرضا فأعلىٰ من ذلك.

وهو «أن ترضى النَّفس وتفرح بما يرد عليها من بليّات».

ففي الحديث إنَّ الإمام الباقر عليه السلام سأل جابر الأنصاري كيف تجد حالك؟ فقال جابر: أنا في حال الفقر أحبُّ إليَّ من الغنى، والمرض أحبُّ إليَّ من الصحَّة، والموت أحبُّ إليَّ من الحياة، فقال عليه السلام: أمَّا نحن أهل البيت فما يرد علينا من الفقر والغنى والمرض والصحَّة والموت والحياة فهو أحبُّ إلينا».

ولعلَّ جابراً لم يكن مطمئناً من نفسه أن يملك قلبه في حال الصحَّة والسَّلامة والغنى والعافية فمن هذه الجهة قال ما قال، ولكن

---

(١) جنود العقل والجهل: ص٤٢٠.

مقام الولاية مقام تقع فيه الواردات تحت سيطرته، فلو أعطي الولي الكامل ملك العالم كُلَّه أو أخذ منه كل شيء لا يؤثر في قلبه شيء[1].

عن قتيبة الأعشي قال: أتيت أبا عبد الله عليه السلام أعود ابناً له، فوجدته على الباب فإذا هو مهتمٌ حزين، فقلت: جُعلت فداك كيف الصبي؟ فقال: «والله إنَّه لما به، ثمَّ دخل فمكث ساعة، ثمَّ خرج إلينا وقد اصفر وجهه وذهب التغير والحزن، قال: فطمعت أن يكون قد صلح الصبي، فقلت: كيف الصبي جُعلت فداك؟ فقال عليه السلام: وقد مضى لسبيله، فقلت: جُعلت فداك لقد كنت وهو حيٌّ مهتماً حزيناً وقد رأيت حالك الساعة وقد مات غير تلك الحال فكيف هذا؟ فقال عليه السلام: إنَّا أهل البيت إنَّما نجزع قبل المصيبة فإذا وقع أمر الله رضينا بقضائه وسلَّمنا لأمره»[2].

ولا يتحقق الرضا في قلب المؤمن إلاَّ بعد الإذعان بأنَّ الله تعالىٰ لا يفعل بعبده إلاَّ ما هو خيرٌ له، قال الله تعالىٰ: ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ (سورة المجادلة: الآية: ٢٢).

فعن الإمام علي عليه السلام: «أصل الرضا حسن الثقة بالله».

فعن الإمام الصَّادق عليه السلام: «قال الله تعالىٰ: عبدي المؤمن لا أصرفه في شيء إلاَّ جعلته خيراً له فليرض بقضائي، وليصبر على بلائي، وليشكر نعمائي، اكتبه يا محمَّد من الصِّدِّيقين عندي»[3].

---

(١) جنود العقل والجهل: ص٤٢٠.
(٢) أهل البيت في الكتاب والسُنَّة: ص٢٩٢.
(٣) تزكية النفس: ص٤٣٤.

وعنه ﷺ: «اعلموا أنّه لن يؤمن عبد من عبيده حَتّى يرضى عن الله فيما صنع الله إليه وصنع به على ما أحبَّ وكره»[1].

في الرِّواية أوحى الله تعالىٰ إلى داود: «تُريد وأُريد، وإنَّما يكون ما أُريد، فإن سلَّمت لما أُريد كفيتك ما تُريد وإن لم تُسلِّم لما أُريد أتعبتك فيما تريد ثمَّ لا يكون إلاَّ ما أُريد»[2].

وللرضا ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: أن ينظر إلى موقع البلاء والفعل الَّذي يقتضي الرضا، ويدرك موقعه، ويحسُّ بألمه، ولكن يكون راضياً به، بل راغباً فيه، مريداً له بعقله، وإن كان كارهاً له بطبعه، طلباً لثواب الله تعالىٰ عليه، ومزيداً لزلفىٰ لديه، والفوز بالجَنَّة الَّتي عرضها السَّمٰوات والأرض، وقد أعدت للمتقين.

وهذا القسم من الرضا هو رضا المتقين.

ومثاله مثال من يلتمس الفصد والحجامة من الطبيب العالم بتفاصيل أمراضه وما فيه إصلاحه، فإنَّهُ يدرك ألم الفعل، إلاَّ أنَّهُ راض به، وراغب فيه، ومتقلِّد من الفَصَّاد منةً عظيمة بفعله.

ومثله من يسافر في طلب الربح، فإنَّهُ يدرك مشقَّة السفر، ولكن حبّه لثمرة سفره طَيَّب عنده مشقَّة السفر، وجعله راضياً به، ومهما أصابته بليَّة من الله تعالىٰ ـ وكان له يقين بأنَّ ثوابه الَّذي ادخر له فوق ما فاته ـ رضي به، ورغب فيه، وأحبَّه، وشكر الله تعالىٰ عليه.

---

(١) ميزان الحكمة.

(٢) المصدر السابق.

الدرجة الثانية: أن يدرك الألم كذلك، ولكنَّه أحبَّه لكونه مراد محبوبه ورضاه، فإنَّ من غلب عليه الحب كان جميع مراده وهواه ما فيه رضا محبوبه، وذلك موجود في الشاهد بالنسبة إلى حبّ الخلق بعضهم بعضاً، قد تواصفه المتواصفون في نظمهم ونثرهم، ولا معنى له إلاَّ ملاحظة حال الصورة الظاهرة بالبصر.

الدرجة الثالثة: أن يبطل إحساسه بالألم، حَتَّى يجري عليه المؤلم ولا يحسُّ، وتصيبه جراحة ولا يدرك ألمه.

ومثاله الرجل المحارب، فإنَّه في حال غضبه أو حال خوفه قد تصيبه جراحة وهو لا يحسُّ بها، حَتَّى إذا رأى الدم استدلَّ به على الجراحة، بل الَّذي يعدو في شغل مريب قد تصيبه شوكة في قدمه، ولا يحسُّ بألمه لشغل قلبه، بل الَّذي يحجم، أو يحلق رأسه بحديدة كآلة يتألم بها، فإن كان قلبه مشغولاً بمهمّ من مهماته، يفرغ الحجام أو الحالق، وهو لا يشعر به.

وكُلّ ذلك لأنَّ القلب إذا صار مستغرقاً بأمر من الأُمور لم يدرك ما عداه.

ونظائر ذلك في هموم أهل الدُّنيا، واشتغالهم بها، وإكبابهم عليها، حَتَّى لا يتألمون، ولا يحسُّون بالجوع والعطش والتعب ـ لذلك ـ كثير مُشاهَد عياناً، فكذلك العاشق المستغرق الهم بمشاهدة محبوبه، قد يصيبه ما كان يتألَّم به، أو يغتمّ لولا عشقه، ثمَّ لا يدرك غمَّه وألمه، لفرط استيلاء الحب على قلبه، هذا إذا أصابه من غير حبيبه، فكيف إذا أصابه من حبيبه؟!

وشغل القلب بالحبّ والعشق من أعظم الشواغل، وإذا تصوَّر هذا في ألم يسير بسبب حبّ خفيف، تصوَّر في الألم العظيم بالحبِّ العظيم، فإنَّ الحب أيضاً يتصوَّر تضاعفه في القُوَّة، كما يتصوَّر تضاعف الألم، وكما يقوي حب الصور الجميلة المدركة بحاسَّة البصر، فكذا يقوي حب الصور الجميلة الباطنة المدركة بنور البصيرة الربوبيَّة، وجلالها لا يُقاس بها جلال، فمن انكشف له شيء منه فقد يبهره، بحيث يدهش ويغشىٰ عليه، فلا يحسُّ بما يجري عليه.

كما روي عن امرأة أنَّها عثرت فانقطع ظفرها، فضحكت، فقيل لها: أما تجدين الوجع؟ فقالت: إنَّ لذَّة ثوابهِ أزالت عن قلبي مرارة وجعه.

وكان بعضهم يعالج غيره من علَّة فنزلت به، فلم يعالج نفسه، فقيل له في ذلك، فقال: ضرب الحبيب لا يوجع.

لمَّا اشتدَّ البلاء على أيوب عليه السلام قالت امرأته: ألا تدعو ربَّك، فيكشف ما بك؟ فقال لها: «يا امرأة إنِّي عشت في الملك والرخاء سبعين سنة، فأنا أريد أن أعيش مثلها في البلاء، لعلِّي كنت أدَّيت شكر ما أنعم الله عليَّ، وأولى بي الصَّبر على ما أبلىٰ».

وروي أنَّ يونس عليه السلام قال لجبرئيل عليه السلام: «دلَّني على أعبد أهل الأرض»، فدلَّه على رجل قد قطع الجذام يديه ورجليه، وذهب ببصره وسمعه، وهو يقول:

إلٰهي! متَّعتني بهما ما شئت، وسلبتني ما شئت، وأبقيت لي فيك الأمل، يا برُّ يا وصول.

وروي أنَّ عيسى عليه السلام مرَّ برجل أعمى أبرص مقعد مضروب

الجنبين بالفالج، وقد تناثر لحمه من الجذام، وهو يقول: الحمد لله الَّذي عافاني مِمَّا ابتلى به كثيراً من خلقه.

فقال له عيسى عليه السلام: «يا هذا، وأي شيء من البلاء أراه مصروفاً عنك؟».

فقال: يا روح الله، أنا خير مِمَّن لم يجعل الله في قلبه ما جعل في قلبي من معرفته.

فقال له: «صدقت، هات يدك» فناوله يده، فإذا هو أحسن النَّاس وجهاً، وأفضلهم هيئة، قد أذهب الله عنه ما كان، فصحب عيسى عليه السلام، وتعبَّد معه[1].

هذا، وليعلم أنَّ العبد قد يصل إلى مرحلة لا يرضى عن الله فقط بل يشكر الله تعالىٰ على كُلِّ مصيبة وبليَّة وهذه مرحلة أعلى من مرتبة الصَّبر والرضىٰ.

الشكر على البلاء:

المؤمن لا يرى البلاء مصيبة يصبر عليها فحسب بل يرى أنَّهُ نعمة من الله تعالىٰ يشكر الله عليها، لأنَّه يرى في البلاء تحفة وهدية من الله إليه. ففي الرواية: «لا يستكمل عبد الإيمان حتى يرى ان البلاء من نِعم الله عليه»[2].

عن النَّبي محمَّد صلى الله عليه وآله: «لا تكونوا مؤمنين حَتَّى تعدوا البلاء

(١) مسكن الفؤاد: ص٨٥.
(٢) مواهب الرحمان.

نعمة والرخاء محنة، لأنَّ بلاء الدُّنيا نعمة في الآخرة ورخاء الدُّنيا محنة في الآخرة»[1].

وعنه ﷺ: «... ومنْ ذاق طعم البلاء تحت ستر حفظ الله له تلذذ به أكثر من تلذذه بالنعمة، ويشتاق إليه إذا هذه لأنَّ تحت يد البلاء والمحنة أنوار النعمة وتحت أنوار النعمة نيران البلاء والمحنة، وقد ينجو من البلاء كثير ويهلك في النعمة كثير»[2].

ومن هنا نجد في الرِّوايات أنَّ أكمل النَّاس إيماناً كانوا يستبشرون عند نزول البلاء والمحن، ويتجلّىٰ ذلك في كلام للإمام علي عليه السلام عندما سأله النَّبي الأعظم ﷺ: «كيف صبرك يا علي على الشهادة؟ فقال عليه السلام: «ليس هذا من مواطن الصَّبر ولكن من مواطن البشرى والشكر»[3].

وكذلك كان الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء كُلَّما اشتدّ الأمر به أشرق وجهه نوراً وتقدَّم للقتال وهو لا يبالي بالموت بل قال: «إنِّي لا أرىٰ الموت إلاَّ سعادة».

ولمَّا مات ولدٌ للإمام الصَّادق عليه السلام قال: «سبحان منْ يقتل أولادنا ولا نزداد له إلاَّ حبّاً».

وإنَّ النعمة الكبرى الَّتي لا بُدَّ أن يُشكر الله عليها هي أنَّ المصيبة لم تكن في الأُمور الدِّينيَّة ـ كنقص الإيمان ومعصية الله ـ وإنَّما هي في الأُمور الدنيويَّة.

---

(١) دار السَّلام: ج٤، ص١٧٨.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الرُّوح: للمؤلف، ص١٩٥.

ففي الرِّواية: «كان الإمام الصَّادق عليه السلام يقول عند المصيبة: «الحمد لله الَّذي لم يجعل مصيبتي في ديني، والحمد لله الَّذي لو شاء أن تكون مصيبتي أعظم مِمَّا كانت، والحمد لله على الأمر الَّذي شاء أن يكون وكان»[1].

وكان بعض الصالحين يشكر الله أربع مرَّات إذا أُصيب بمصيبة:

١ ـ لأنَّها لم تكن أعظم مِمَّا هي.

٢ ـ لأنَّهُ رُزق الصَّبر عليها.

٣ ـ لأنَّهُ تذكر وانتظر أجرها.

٤ ـ لأنَّها لم تكن مصيبة في الدِّين.

كيفية مواجهة بلاء الفقر:

إذا ابتلى الإنسان بالفقر فلا بُدَّ له من أُمور:

أولاً: أن يعلم أنَّ الفقر ليس دليلاً على غضب الله عليه كما أنَّ الغنى ليس دليلاً على رضى الله تعالىٰ عنه كما يتصور بعض النَّاس.

قال الله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ (سورة الفجر: الآيتان: ١٥ ـ ١٦).

ثانياً: أن يضع نُصب عينيه أنَّ ما عنده من ولاية أهل البيت عليهم السلام هي أغنى الغنى.

ففي الحديث: «أنَّ رجلاً شكى للإمام الصَّادق عليه السلام ما نزل به

---

(١) ميزان الحكمة.

من صروف الدّهر وتقلبات الليالي والأيّام، فقال له الإمام عليه السلام: «بما تعدل ولايتنا؟ فقال الرجل: لا أعدلها بالدُّنيا وما فيها، فقال الإمام عليه السلام: «إنَّكَ تخرج من هنا وبيدك درَّة لا تعدلها بالدُّنيا وما فيها ثمَّ تشكو؟»[1].

وعن الإمام الصَّادق عليه السلام: «الفقر معنا خير من الغنى مع غيرنا»[2].

ثالثاً: أن يقنع بما عنده ولا يتطلع إلى منْ هو أغنى منه.

فعن الإمام الباقر عليه السلام: «منْ قنع بما رزقه فهو من أغنى النَّاس».

وعنه عليه السلام: «إيَّاك أن يطمح بصرك إلى منْ هو فوقك فكفى بما قال الله تعالى لنبيّه: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ﴾، وقال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، فإن دخلك من ذلك شيء فاذكر عيش رسول الله صلى الله عليه وآله فإنَّما كان قوته الشعير وحلواه التمر، ووقوده السعف إذا وجده»[3].

وقد ذكر القرآن الكريم لنا حال بعض بني إسرائيل الَّذين بُهروا بأموال قارون وقالوا: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ (سورة القصص: الآية: ٨٢).

---

(١) رسالة أبوية للمغتربين: ص٣٥.
(٢) ميزان الحكمة: مادة «الفقر».
(٣) أخلاق أهل البيت عليهم السلام: ص٤٩.

قال الشاعر:

هي القناعة فاحفظها تكن ملكاً ولو لم تكن لك إلاَّ راحة البدن
وانظر لمن ملك الدُّنيا بأجمعها هل راح منها بغير القطن والكفن

رابعاً: أن يتدبَّر في الأحاديث الَّتي تمدح الفقر ومنها:

أوحىٰ الله تعالىٰ إلى موسىٰ عليه السلام: «إذا رأيت الفقر مقبلاً فقل: مرحباً بشعار الصالحين وإذا رأيت الغنى مقبلاً فقل: ذنب عُجلت عقوبته».

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «والله ما اعتذر الله إلى ملك مقرَّب، ولا نبيّ مرسل إلاَّ إلى فقراء شيعتنا، قيل له: وكيف يعتذر لهم؟ قال: ينادي مناد: أين فقراء المؤمنين؟ فيقوم عنق من النَّاس فيتجلَّىٰ لهم الربُّ فيقول: وعزَّتي وجلالي وآلائي وارتفاع مكاني ما حبست عنكم شهواتكم في دار الدُّنيا هواناً بكم عليَّ ولكن ذخرته لكم لهذا اليوم، أما ترى قوله: ما حبست عنكم شهواتكم في دار الدُّنيا اعتذاراً؟! قوموا اليوم فتصفَّحوا وجوه خلائقي فمن وجدتم له عليكم منَّة بشربة من ماء فكافوه عنِّي بالجَنَّة».

عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إنَّ العبد ليكرَّم على الله حَتَّىٰ أنَّه لو سأله الجنَّة أعطاه إيَّاها ولم ينقصه ذلك شيئاً، ولو سأله شبراً من الأرض حرمه.

وإنَّ العبد ليهون على الله حَتَّى أنَّهُ لو سأله الدُّنيا وما فيها أعطاه إيَّاها ولم ينقصه ذلك، ولو سأله من الجَنَّة شبراً حرمه.

وإنَّ الله يتعهَّد المؤمن بالبلاء كما يتعهَّد الغائب أهله بالهديَّة ويحميه الدُّنيا كما يحمي الطبيب المريض».

عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إنَّ الله ليعطي الدُّنيا من يحبّ ويبغض، ولا يعطي الآخرة إلاَّ من يحبّ، وإنَّ المؤمن ليسأل ربَّه موضع سوط في الدُّنيا فلا يعطيه. ويسأله الآخرة فيعطيه ما شاء، ويعطي الكافر في الدُّنيا قبل أن يسأله ما شاء، ويسأل موضع سوط في الآخرة فلا يعطيه شيئاً».

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنَّ الفقر مخزون عند الله، لا يبتلي به إلاَّ من أحبَّ من المؤمنين، ثمَّ قال: إنَّ الله يعطي الدُّنيا من أحبَّ ومن أبغض، ولا يعطي دينه إلاَّ من أحبَّ».

عن عبد الله بن سنان قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «الفقر أزين على المؤمن من العذار على خدِّ الفرس، وإنَّ آخر الأنبياء دخولاً إلى الجنَّة سليمان، وذلك لما أُعطي من الدُّنيا»[1].

خامساً: أن لا يشكو الفقر إلى أحد من النَّاس لأنَّه يشكو الله تعالىٰ بذلك ويهون في أعين النَّاس بل ليكون مظهره يدلُّ على الغنى فإنَّ من صفات المؤمنين أنَّهم ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (سورة البقرة: الآية: ٢٧٣).

سادساً: أن يعمل ليستغني عن النَّاس ففي الحديث: «مَنْ وجد ماءً وأرضاً ثمَّ افتقر فعليه لعنة الله».

عن الإمام الصَّادق عليه السلام أنَّهُ قال: «اشتدت حال رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله فقالت له امرأته: لو أتيت رسول الله فسألته

---

(١) التمحيص: ص٤١٤.

(أي طلبت منه المال) فجاء إلى النبي ﷺ فلمّا رآه النبي ﷺ قال: مَنْ سألنا أعطيناه ومن استغنى أغناه الله، فقال الرجل: ما يعني غيري، فرجع إلى امرأته فأعلمها، فقالت: إنَّ رسول الله بشر فأعلمه، فأتاه فلمّا رآه رسول الله ﷺ قال: مَنْ سألنا أعطيناه ومن استغنى أغناه الله حَتَّى فعل الرجل ما ذكرته ثلاثاً، ثمَّ ذهب الرجل فاستعار معولاً ثمَّ أتى إلى الجبل فصعده فقطع حطباً ثمَّ جاء به فباعه بنصف مدّ من دقيق فرجع فأكلوه ثمَّ ذهب في الغد فصعده فجاء بأكثر من ذلك فباعه فلم يزل يعمل ويجمع حَتَّى اشترى معولاً ثمَّ جمع حَتَّى اشترى بكرين وغلاماً ثمَّ أثرىٰ حَتَّى أيسر فجاء النبي ﷺ فأعلمه كيف جاء يسأله وكيف سمع النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: قد قلت لك من سألنا أعطيناه ومن استغنى أغناه الله»[1].

وقال الشاعر:

عليك بتقوى الله إن كنتَ غافلاً
يأتيكَ بالأرزاقِ مِن حيثُ لا تدْري
فكيفَ تخافُ الفقرَ واللهُ رازقاً
فقدْ رزقَ الطيرَ والحوتَ في البحرِ
ومَن ظنَّ أنَّ الرزقَ يأتي بقوةٍ
ما أكلَ العصفورُ شيئاً معَ النسْرِ
تزولُ عنِ الدنيا فإنَّكَ لا تدْري
إذا جنَّ عليكَ الليلُ هلْ تعيشُ إلى الفجرِ

---

(١) [illegible]

فَكَمْ مِنْ صَحِيحٍ مَاتَ مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ
وَكَمْ مِنْ سَقِيمٍ عَاشَ حِيناً مِنَ الدَّهْرِ
وَكَمْ مِنْ فَتىً أَمْسَىٰ وَأَصْبَحَ ضَاحِكاً
وَأَكْفَانُهُ فِي الغَيْبِ تُنْسَجُ وَهُوَ لاَ يَدْرِي
فَمَنْ عَاشَ أَلْفاً وَأَلْفَيْنِ
فَلاَ بُدَّ مِن يَوْمٍ يَسِيرُ إِلَىٰ القَبْرِ

كيفية مواجهة بلاء المرض:

ينبغي لمنْ ابتلى بالمرض أن يعلم الأُمور التالية حول المرض:

١ ـ إنَّ المرض هدية من الله تعالىٰ فلا بُدَّ من شكر الله تعالىٰ عليها.

فعن الإمام الباقر عليه السلام: «إذا أحبَّ الله عبداً نظر إليه فإذا نظر إليه أتحفه من ثلاث بواحدة: إمَّا صداع وإمَّا حمَّى وإمَّا رمد»[١].

٢ ـ إنَّ المرض كفَّارة للذُّنُوب.

فعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا يرضى مؤمن ولا مؤمنة إلاَّ حطَّ الله به من خطاياه».

وعنه صلى الله عليه وآله: «حمَّىٰ يوم كفَّارة سنة».

وعنه صلى الله عليه وآله أنَّهُ قال لأبي ذرِّ وقد عاده في وعكه: «أصبحت في روضة من رياض الجَنَّة قد انغمست في ماء الحيوان وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك».

---

(١) التمحيص: ص٤١٠.

عن سفيان بن السمط، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنَّ الله إذا أحبَّ عبداً ابتلاه وتعهَّد بالبلاء، كما يتعهَّد المريض أهله بالطرف ووكَّل به ملكين فقال لهما: أسقما بدنه وضيِّقا معيشته وعوِّقا عليه مطلبه حَتَّى يدعوني فإنِّي أُحبُّ صوته، فإذا دعا قال: أُكتبا لعبدي ثواب ما سألني فضاعفاه له حَتَّى يأتيني، وما عندي خير له.

وإذا أبغض عبداً وكَّل به ملكين فقال: أصحَّا بدنه، ووسِّعا عليه في رزقه، وسهِّلا له مطلبه وأنسياه ذكري فإنِّي أبغض صوته حَتَّى يأتيني وما عندي شيء له»[1].

٣ ـ إنَّ فيه الأجر العظيم في الآخرة.

عن النَّبي صلى الله عليه وآله: «ليودّن أهل العافية يوم القيامة أنَّ جلودهم قرضت بالمقاريض لما يرون من ثواب أهل البلاء».

وعنه صلى الله عليه وآله: «للمريض أربع خصال: يُرفع عنه القلم، ويأمر الله الملك فيكتب له كل فعل كان يعمله في صحته وينفع كل عضو في جسده فيستخرج ذُنوبه منه» فإن مات مات مغفوراً له وإن عاش عاش مغفوراً له»[2].

وعنه صلى الله عليه وآله: «إنَّ الرجل ليكون له الدرجة عند الله لا يبلغها بعمله، يُبتلى ببلاء بفي جسمه فيبلغها بذلك».

وعن الإمام الصَّادق عليه السلام أنَّهُ قال فيمن فقد حواسه: «... ثمَّ للذين تنزل بهم هذه البلايا من الثواب بعد الموت ـ إن شكروا

---

(١) التمحيص: ص٤٢٦.

(٢) دار السَّلام: ج٤، ص١٧٥.

وأنابوا ـ ما يستصغرون معه ما ينالهم منها حَتَّى أنَّهم لو خيروا بعد الموت لاختاروا أن يردوا إلى البلايا ليزدادوا من الثواب»[1].

عن الإمام الصَّادق عليه السلام: «أنَّ رجلاً مكفوف البصر أتى النبي صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله ادع الله أن يردَّ عليَّ بصري، قال: فدعا الله فردَّ عليه بصره، ثمَّ أتاه آخر، فقال: يا رسول الله ادع الله أن يردَّ عليَّ بصري، فقال: الجَنَّة أحبُّ إليك أو يردَّ عليك بصرك، قال: يا رسول الله وأنَّ ثوابها الجَنَّة؟ قال صلى الله عليه وآله الله أكرم من أن يبتلي عبده المؤمن بذهاب بصره ثمَّ لا يثيبه الجَنَّة»[2].

فإذا علم الإنسان بما تقدَّم ينبغي له أُمور:

١ ـ أن لا يجزع من المرض.

عن النَّبي محمَّد صلى الله عليه وآله: «عجبت للمؤمن وجزعه من السقم ولو علم ما له في السقم لأحبَّ أن لا يزال سقيماً حَتَّى يلقى ربَّه»[3].

٢ ـ أن يكتم مرضه ولا يشكو لأحد.

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «قال الله تعالىٰ: من مرض ثلاثاً فلم يشكُ إلى أحد من عوَّاده أبدلته لحماً خيراً من لحمه ودماً خيراً من دمه فإنَّ عافيته عافيته ولا ذنب له، وإن قبضته قبضته إلى رحمتي».

٣ ـ أن يضع نصب عينيه قصص المرضى الَّذين شفوا من خلال التوسُّل بالمعصومين عليهم السلام.

---

(١) توحيد المفضَّل: ص٢٤.
(٢) سفينة البحار: مادة «بصر».
(٣) دار السَّلام: ج٤، ص١٧٤.

٤ ـ الاعتبار بأحوال المرضى الصابرين.

كيفية مواجهة بلاء إيذاء الجار والزوج:

قد يُبتلى المؤمن بالإيذاء من قِبلْ المشركين أو المؤمنين كالزوج، والجيران، وبقية النَّاس، وقد يكون الإيذاء بالكلام أو الأفعال، ولا يخفى أنَّ الابتلاء بالصاحب غير الموافق سواء أكان زوجاً أو صديقاً أو جاراً أو زميلاً في العمل هو من أصعب الابتلاءات، ويشهد له ما ورد في الرِّوايات من أنَّ سليمان عليه السلام لما أراد تعذيب الهدهد أمر بحبسه مع الحدأة في قفص واحد، فلما رأى حاله معها طلب من سليمان أن يخرجه من القفص وأن يعذبه بكُلِّ ما أراد من أنواع العذاب لأنَّه أخف عليه من الحبس مع منْ لا يحب.

وقديماً قالوا: إذا أردت أن تعذِّب عالماً فاقرن معه جاهلاً.

ومن المعلوم أنَّ الزوجة إذا كانت سيئة الخلق وغير مطيعة وبذيئة اللِّسان فهي من أعظم المصائب خصوصاً إذا علمت أنَّ الزوج لا يستطيع أن يفارقها لفقره أو وجود الأولاد، سيَّما إذا كان الزوج من أهل الأخلاق.

وكذا الحال في الزوج إذا كان سيىء الخلق وعصبي الطبع فإنَّهُ من أعظم المصائب على الزوجة.

وإذا كانت الرِّوايات تقول: «أفضل الأعمال أحمزها» فإنَّ بعض الأنبياء أبتلوا بالزوجات الطالحات ليكون أجرهم عظيماً عند الله تعالىٰ وذلك كنبي الله عليه السلام نوح عليه السلام ولوط عليه السلام.

عن رسول الله ﷺ: «أغلب أعداء المؤمنين زوجة السوء».

عن الإمام الصَّادق عليه السلام: «لا ينفك المؤمن من خصال أربع: جار يؤذيه، وشيطان يغويه، ومنافق يقفو أثره، ومؤمن يحسده وهو أشده عليهم لأنَّه يقول فيه القول فيصدق عليه».

وعنه عليه السلام: «إنَّ المؤمن ليبتلى بأهل بيته الخاصَّة فإن لم يكن أهل بيته فجاره الأدنى فالأدنى»[1].

وفي كُلِّ هذه المصائب لا بُدَّ من الصَّبر الجميل أو العفو عن الأذى وهي مرتبة أعلى من الصَّبر.

ففي الرِّوايات:

عن رسول الله ﷺ: «ومنْ صبر على خُلُق امرأة سيئة الخُلق واحتسب في ذلك الأجر أعطاه الله ثواب الشاكرين».

عن رسول الله ﷺ: «منْ صبر على سوء خلق امرأته واحتسبه أعطاه الله بكُلِّ مرَّة يصبر عليها من الثواب ما أعطى أيوب عليه السلام على بلائه».

وعنه ﷺ: «منْ صبرت على سوء خلق زوجها أعطاها الله مثل ثواب آسية بنت مزاحم».

وورد عن الإمام الصَّادق عليه السلام في حقِّ الزوجة على زوجها: «... وإن جهلت غفر لها»[2].

---

(١) لئالئ الأخبار: ج١، ص٣٢٨.

(٢) ميزان الحكمة: مادة «الزوج».

وعنه عليه السلام: «شكا رجل من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام نساءه فقام عليه السلام خطيباً فقال: «فداروهنَّ على كُلِّ حال، وأحسنوا لهنَّ المقال، لعلّهنَّ يحسنَّ الفعال»[1].

وقد وصف الله تعالىٰ نبيه إبراهيم عليه السلام بالحُلم لما تحمله من سوء خلق زوجته سارة.

ونُقل أنَّ جماعة من قوم عاد قصدوا النبي هود عليه السلام ليدعوا الله تعالىٰ حَتّى تمطر السَّماء فخرجت عليهم امرأة شمطاء عوراء وقالت لهم: لو استجيب لهود لدعا لنفسه فقد احترق زرعه لقلّة الماء، فقالوا لها؟ أين هو؟ قالت: في موضع كذا. فجاءوا إليه وقالوا: يا نبي الله قد أُجدبت الأرض فاسأل الله أن يمطر بلادنا فصلّىٰ ودعا لهم وقال: ارجعوا فقد أمطرت، فقالوا: لقد رأينا في بيتك عجباً امرأة شمطاء عوراء، وحكوا له كلامها فقال هود عليه السلام: تلك امرأتي وأنا أدعوا الله لها بطول البقاء! فقالوا: وكيف ذلك فقال عليه السلام: لأنَّه ما خلق الله مؤمناً إلاّ وله عدو يؤذيه وهي عدوتي فلأن يكون عدوي مِمَّن أملكه خير من أن يكون عدوي مِمَّن يملكني»[2].

وقد زخرت أسفار السير والمناقب، بالحلم عن المُؤذي والعفو عنه، وإليك نموذجاً من ذلك:

قال الإمام الباقر عليه السلام: «إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله أتى باليهودية

---

(١) اللاعنف في الإسلام: ص١٢١.
(٢) قصص الأنبياء: ص١٣١.

الّتي سمَّت الشاة للنبي، فقال لها: ما حملك على ما صنعت؟ فقال: قلت إن كان نبياً لم يضرَّه، وإن كان ملكاً أرحت النَّاس منه، فعفى رسول الله عنها».

وهكذا كان أمير المؤمنين علي عليه السلام أحلم النَّاس وأصفحهم عن المسيء:

فقد ظفر بعبد الله بن الزبير، ومروان بن الحكم، وسعيد بن العاص، وهم ألدَّ أعدائه، والمؤلبين عليه، فعفا عنهم، ولم يتعقبهم بسوء.

وظفر بعمرو بن العاص، وهو أخطر عليه من جيش ذي عدَّة، فأعرض عنه، وتركه ينجو بحياته حين كشف عن سوأته اتقاءَ لضربته.

وحال جند معاوية بينه وبين الماء في معركة صفين، وهم يقولون له: لا تشرب منه قطرة حَتَّى تموت عطشاً، فلمَّا حمل عليهم، وأجلاهم عنه، سوَّغ لهم أن يشربوا منه كما يشرب جنده.

وزار عائشة بعد وقعة الجمل، وودعها أكرم وداع، وسار في ركابها أميالاً، وأرسل معها من يخدمها ويحفّ بها.

وكان الحسن بن علي عليه السلام على نهج أبيه وجدِّه صلوات الله عليهم أجمعين:

فمن حلمه أنَّ شامياً رآه راكباً، فجعل يلعنه، والحسن لا يرد، فلما فرغ، أقبل الحسن عليه السلام فسلَّم عليه، وضحك، فقال: أيُّها الشيخ أظنّك غريباً، ولعلَّك شبَّهت، فلو استعتبتنا أعتبناك، ولو سألتنا أعطيناك، ولو استرشدتنا أرشدناك، ولو استحملتنا أحملناك، وإن كنت جائعاً أشبعناك، وإن كنت عرياناً كسوناك، وإن كنت

محتاجاً أغنيناك، وإن كنت طريداً آويناك، وإن كان لك حاجة قضيناها لك، فلو حرَّكت رحلك إلينا، وكنت ضيفنا إلى وقت ارتحالك، كان أعود عليك، لأنَّ لنا موضعاً رحباً، وجاهاً عريضاً، ومالاً كثيراً. فلما سمع الرجل كلامه بكىٰ، ثمَّ قال: أشهد أنَّكَ خليفة الله في أرضه، الله أعلم حيث يجعل رسالته، وكنت أنت وأبوك أبغض خلق الله إليَّ، والآن أنت أحبُّ خلق الله إليَّ، وحوَّل رحله إليه، وكان ضيفه إلى أن ارتحل وصار معتقداً لمحبتهم.

وهكذا كان الحسين بن علي عليه السلام: فقد جنى غلام للحسين عليه السلام جناية توجب العقاب عليه، فأمر به أن يُضرب، فقال: يا مولاي والكاظمين الغيظ. قال: خلُّوا عنه. قال: يا مولاي والعافين عن النَّاس. قال: قد عفوت عنك. قال: والله يحب المحسنين. قال: أنت حرٌّ لوجه الله، ولك ضعف ما كنت أعطيك.

ومن أروع ما نظمه الشُّعراء في مدح الحلم، ما رواه الإمام الرِّضا عليه السلام، حين قال له المأمون: أنشدني أحسن ما رويت في الحلم، فقال عليه السلام:

إذا كان دوني من بليت بجهله	أبيت لنفسي أن تقابل بالجهل
وإنْ كان مثلي في محلى من النُّهى	أخذت بحلمي كي أجلَّ عن المثل
وإن كنت أدنى منه في الفضل والحجى	عرفت له حق التقدم والفضل

فقال له المأمون: ما أحسن هذا، هذا منْ قاله؟ فقال: بعض فتياننا[1].

---

(١) أخلاق أهل البيت عليهم السلام: ص٣٢.

ولكي تهون مصيبة أذية النّاس لا بُدَّ أن نضع نصب أعيننا الأحاديث التالية:

عن الإمام زين العابدين عليه السلام أنَّهُ قال للزهري: ما بالك مغموماً؟

فقال الزهري: غموم وهموم تتوالى عليَّ لما امتُحنت به من حساد نعمتي والطامعين فيَّ، ومِمَّن أرجوه، ومِمَّن أحسنت إليه فيخلف الظنَّ.

فقال له الإمام عليه السلام: «... وإن رأيت المسلمين يعظمونك ويوقرونك ويجلونك فقل: هذا فضل أُخذوا به وإن رأيت منهم جفاءً وانقباضاً عنك فقل: هذا لذنب أحدثته فإنَّكَ إذا فعلت ذلك سهَّل الله عليك عيشك، وكثر أصدقاؤك، وقلَّ أعداؤك وفرحت بما يكون من برّهم ولم تأسف على ما يكون من جفائهم...».

وفي رواية أخرى أنَّ علقمة شكا للإمام الصَّادق عليه السلام من ألسنة النَّاس، فقال عليه السلام: «إنَّ رضا النَّاس لا يُملك، وألسنتهم لا تضبط، وكيف تسلمون مِمَّا لم يسلم منه أنبياء الله ورسله وحجج الله عليهم السلام... ألم ينسبوا إلى نبينا محمَّد صلى الله عليه وآله إلى أنَّه شاعر مجنون؟... وما قالوا في الأوصياء أكثر من ذلك... إنَّ ألسنة الَّتي تتناول ذات الله تعالىٰ ذكره بما لا يليق بذاته كيف تحبس عن تناولكم بما تكرهونه».

ومن وصية الإمام علي عليه السلام لولده الإمام الحسن عليه السلام:
«... فما طلابك لقوم إن كنت عالماً عابوك، وإن كنت جاهلاً لم

يرشدوك، وإن طلبت العلم قالوا: متكلف متعمق، وإن تركت طلب العلم قالوا: عاجز غبي. وإن تحققت عبادة ربك قالوا: متصنع مراء، وإن لزمت الصمت قالوا: ألكن، وإن نطقت قالوا: مهذار، وإن أنفقت قالوا: مسرف، وإن اقتصدت قالوا: بخيل، وإن احتجت إلى ما في أيديهم صارموك وذموك، وإن لم تعتد بهم كفَّروك فهذه صفة أهل زمانك»[1].

كيفية مواجهة بلاء الموت وفقد الأولاد:

لمَّا كان الموت هو المصيبة الكبرى كما يقول القرآن الكريم: ﴿فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ﴾ (سورة المائدة: الآية: ١٠٦)، وخصوصاً منه موت الولد الَّذي هو مهجة الألباب وثمرة الفؤاد وعلى حدِّ تعبير أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته لولده الإمام الحسن عليه السلام: «وجدتك بعضي بل وجدتك كلِّي حَتَّى لو أنَّ شيئاً أصابك أصابني ولو أنَّ الموت أتاك أتاني».

كان لا بُدَّ لمن يُصاب بموت أحبائه من الأُمور التالية:

أولاً: أن لا يجزع فإنَّ الجزع مبغوض عند الله تعالىٰ.

فعن الإمام الصَّادق عليه السلام: «كل الجزع والبكاء مكروه سواء الجزع والبكاء على الإمام الحسين عليه السلام»[2].

والجزع هو الصراخ، والعويل، وضرب اليد على الخدِّ، أو الجبين، أو شق الجيب والثوب أو جزِّ الشعر ونتفه.

---

(١) ميزان الحكمة.

(٢) الشعائر الحسينيَّة: ص٣٣.

فقد ورد أنَّ النبي ﷺ أخذ البيعة من النِّساء يوم الفتح وقال لهنَّ: «ألاَّ تخمشنَّ وجهاً ولا تلطمنَّ خدّاً، ولا تنتفنَّ شعراً، ولا تمزقنَّ جيباً، ولا تسوِّدنَّ ثوباً، ولا تدعون بالويل والثبور، ولا تقمن عند قبر»[1].

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «أشد الجزع الصراخ بالويل والعويل، ولطم الوجه والصدر، وجزّ الشعر، ومن أقام النواح فقد ترك الصَّبر، ومن صبر واسترجع وحمد الله جلَّ ذكره فقد رضي بما صنع الله، ووقع أجره على الله عزَّ وجلَّ ومن لم يفعل ذلك جرى عليه القضاء وهو ذميم وأُحبط الله عزَّ وجلَّ أجره»[2].

وعن الإمام الصَّادق عليه السلام: «الضرب على الفخذ عند المصيبة يحبط الأجر والصبر عند الصدمة الأولى أعظم، وعظم الأجر على قدر المصيبة، ومن استرجع بعد المصيبة جدَّد الله له أجرها كيوم أُصيب بها»[3].

يقول الشهيد الثاني رحمه الله:

«اعلم أنَّ البكاء بمجرَّده غير منافٍ للصبر ولا للرضا بالقضاء، وإنَّما هو طبيعة بشرية، وجبلة إنسانية، ورحمة رحمية أو حبيبية فلا حرج في إبرازها ولا ضرر في إخراجها، ما لم تشتمل على أحوال تؤذن بالسخط وتنبىء عن الجزع وتذهب بالأجر، من شقّ الثوب ولطم الوجه وضرب الفخذ وغيرها.

---

(١) المصدر نفسه: ص٤٠.
(٢) مسكن الفؤاد: ص٩٩.
(٣) المصدر نفسه: ص٥٣.

وقد ورد البكاء في المصائب عن النّبيّ ﷺ، ومن قبله من لدن آدم عليه السلام، وبعده من آله وأصحابه مع رضاهم وصبرهم وثباتهم.

فأوّل من بكىٰ آدم عليه السلام على ولده هابيل، ورثاه بأبيات مشهورة، وحزن عليه حزناً كثيراً، وإن خفي شيء فلا يخفى حال يعقوب عليه السلام، حيث بكى حَتَّى ابيضَّت عيناه من الحزن على يوسف عليه السلام.

ومن مشاهير الأخبار ما روي عن الإمام الصَّادق عليه السلام، أنَّهُ قال: «إنَّ زين العابدين عليه السلام بكى على أبيه أربعين سنة صائماً نهاره، قائماً ليله، فإذا حضر الإفطار جاء غلامه بطعامه وشرابه، فيضعه بين يديه، ويقول: كل يا مولاي، فيقول: قتل ابن رسول الله جائعاً، قتل ابن رسول الله عطشاناً، فلا يزال يكرر ذلك، ويبكي حَتَّى يبل طعامه من دموعه، فلم يزل كذلك حَتَّى لحق بالله عزَّ وجلَّ»[1].

وعن أنس بن مالك قال: دخلت مع رسول الله ﷺ على أبي سيف القين، وكان ظِئراً لإبراهيم عليه السلام، فأخذ رسول الله ﷺ يقبله، ويشمَّه، ثمَّ دخل عليه بعد ذلك وإبراهيم عليه السلام يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان، فقال له عبد الرَّحمٰن بن عوف: وأنت يا رسول الله؟ فقال: «يا ابن عوف، إنَّها رحمة ـ ثمَّ أتبعها بأخرى، فقال رسول الله ﷺ ـ: العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلاَّ ما يرضي ربنا، وإنَّا لفراقك ـ يا إبراهيم ـ لمحزونون»[2].

---

(١) مُسكن الفؤاد: ص٩٢.

(٢) المصدر نفسه: ص٩٣.

وقال الإمام الصَّادق عليه السلام: «الصَّبر يظهر ما في بواطن العباد من النُّور والصفاء، والجزع يظهر ما في بواطنهم من الظلمة والوحشة، والصَّبر يدَّعيه كل أحد، ولا يبين عنده إلاَّ المخبتون. والجزع ينكره كل أحد، وهو أبين على المنافقين، لأنَّ تزول المحنة والمصيبة، بخبر عن الصادق والكاذب.

وتفسير الصَّبر ما يستمر مذاقه، وما كان عن اضطراب لا يسمى صبراً، وتفسيرُ الجزع اضطراب القلب، وتَحَزُّن الشخص، وتَغَيُّر اللَّون، وتغير الحال، وكُلّ نازلة خلت أوائلها عن الإخبات والإنابة والتضرُّع إلى الله تعالىٰ، فصاحبها جزوع غير صابر، (والصَّبر ما أوله مرّ، وآخره حلو لقوم، ولقوم مرّ أوله وآخره، فمن دخله من أواخره فقد دخل) ومن دخله من أوائله فقد خرج، ومن عرف قدر الصَّبر لا يصبر عمَّا منه الصَّبر.

قال الله عزَّ وجلَّ في قصَّة موسى والخضر عليهما السلام: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ (سورة الكهف: الآية: ٦٨)، فمن صبر كرهاً ولم يشك إلى الخلق، ولم يجزع بهتك ستره، فهو من العام، وتصيبه ما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (سورة البقرة: الآية: ١٥٥) أي: بالجَنَّة والمغفرة، ومن استقبل البلاء بالرحب، وصبر على سكينة، ووقار، فهو من الخاص، ونصيبه ما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (سورة البقرة: الآية: ١٥٣)»[١].

ثانياً: أن يذكر الله تعالى ويحمده على مصابه.

---

(١) المصدر نفسه: ص٥٩.

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ (سورة البقرة: الآيتان: ١٥٦ ـ ١٥٧).

وقال النَّبيّ ﷺ: «أربع من كنَّ فيه كان في نور الله الأعظم: من كان عصمة أمره شهادة أن لاَ إِلَهَ إلاَّ الله وأنِّي رسول الله، ومن إذا أصابته مصيبة قال: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، ومن إذا أصاب خيراً قال: الحمد لله، ومن إذا أصاب خطيئة قال: أستغفر الله وأتوب إليه»[1].

وروى الترمذيّ بإسناده إلى رسول الله ﷺ، قال: «إذا مات ولد العبد قال الله تعالى لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم، فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم، فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك، واسترجع، فيقول الله تعالى: ابنوا لعبدي بيتاً في الجَنَّة، وسموه بيت الحمد»[2].

وفي حديث آخر: قالت: أتاني أبو سلمة يوماً من عند رسول الله ﷺ فقال: سمعت من رسول الله ﷺ قولاً سررت به، قال: «لا يصيب أحداً من المسلمين مصيبة فيسترجع عند مصيبته ثمَّ يقول: اللَّهمَّ آجرني في مصيبتي، واخلف لي خيراً منها، إلاَّ فعل ذلك به». قالت أمّ سلمة: فحفظت ذلك منه، فلمَّا توفي أبو سلمة استرجعت وقلت: اللَّهم آجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منه، ثمَّ

---

(١) المصدر السابق: ص١٠١.

(٢) المصدر السابق: ص١٠٢.

رجعت إلى نفسي فقلت: من أين لي خير من أبي سلمة: فلما انقضت عدَّتي استأذن عليَّ رسول الله ﷺ وأنا ادبغ إهاباً، فغسلت يدي من القرظ وأذنت له، فوضعت له وسادة أدم حشوها ليف فقعد عليها، فخطبني إلى نفسي ﷺ.

فلمَّا فرغ من مقالته قلت: يا رسول الله، ما بي أن لا يكون بك الرغبة، ولكني امرأة فيَّ غيرة شديدة، فأخاف أن ترى منِّي شيئاً يعذِّبني الله به، وأنا امرأة قد دخلت في السنِّ، وأنا ذات عيال.

فقال رسول الله ﷺ: «أما ما ذكرت من السنِّ فقد أصابني مثل الَّذي أصابك، وأما ما ذكرت من العيال فإنَّما عيالك عيالي» قالت: فقد سلَّمت نفسي لرسول الله، فتزوَّجها رسول الله ﷺ، فقالت أُمّ سلمة: فقد أبدلني الله عزَّ وجلَّ بأبي سلمة خيراً منه: النَّبيّ ﷺ»[1].

وعن ابن عبَّاس قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ للموت فزعاً، فإذا أتىٰ أحدَكم وفاةُ أخيه فليقل: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، وإنَّا إلى ربنا لمنقلبون، اللَّهمَّ اكتبه عندك من المحسنين، واجعل كتابه في علِّيين، واخلف على عقبه في الآخرين، اللَّهمَّ لا تحرمنا أجره، ولا تفتنَّا بعده».

وعن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليهما السلام: «إنَّ النَّبيّ ﷺ قال: من أصابته مصيبة فقال إذا ذكرها: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، جدَّد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ له أجرها، مثل ما كان له يوم أصابته»[2].

---

(١) المصدر السابق: ص٥٣.

(٢) المصدر السابق: ص٥٣.

وعن ابن عبَّاس أنَّه نُعي إليه أخوه قُثم وهو في سفر فاسترجع، ثمَّ تنحَّىٰ عن الطَّريق فأناخ، فصلَّىٰ ركعتين أطال فيهما الجلوس، ثمَّ قام يمشي إلى راحلته وهو يقول: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (سورة طه: الآية: ١٣٢).

وعنه أيضاً أنَّه كان إذا أُصيب بمصيبة قام وتوضأ وصلَّىٰ ركعتين، وقال: اللَّهمَّ قد فعلتُ ما أمرتَنا، فأنجز لنا ما وعدتنا.

ثالثاً: يقول الشهيد الثاني رحمه الله: «أنَّه إذا نظرت إلى أحوال الرُّسل عليهم السلام، وصدَّقتهم فيما أخبروا به من الأُمور الدنيويَّة والأخرويَّة، ووعدوا به من السعادة الأبديَّة، وعلمت أنَّهم إنَّما أتوا بما أتوا به عن الله جلَّ جلاله، (واعتقدت أنَّ قولهم) معصوم عن الخطأ، محفوظ من الغلط والهوى، وسمعت ما وعدوا به من الثواب على أيِّ نوع من أنواع المصاب كما ستراه وتسمعه، سهل عليك موقعه، وعلمت أنَّ لك في ذلك غاية الفائدة، وتمام السعادة الدائمة، وأنَّكَ قد أعددت لنفسك كنزاً من الكنوز مذخوراً، بل حرزاً ومعقلاً وجُنَّة (من العذاب الأليم والعقاب العظيم)، الَّذي لا يطيقه بشر، ولا يقوى به أحد، مع أنَّ ولدك مشاركك في هذه السعادة، فقد فزت أنت وهو، فلا ينبغي أن تجزع.

ومثِّل لنفسك: أنَّه لو دهمك أمر عظيم، أو وثب عليك سبع أو حية، أو هجمت عليك نار مضرمة، وكان عندك أعزَّ أولادك، وأحبَّهم إلى نفسك، وبحضرتك نبي من الأنبياء، لا ترتاب في صدقه، وأخبرك: أنَّكَ إن افتديت بولدك سلمت أنت وولدك، وإن لم تفعل عطبت، و(الحال أنَّكَ) لا تعلم هل يعطب ولدك، أو يسلم؟

أيشكُّ عاقل أنَّ الاقتداء بالولد الَّذي يتحقَّق معه سلامة الولد، ويرجى معه ـ أيضاً ـ سلامة الوالد، هو عين المصلحة، وأنَّ عدم ذلك، والتعرض لعطب الأب والولد هو عين المفسدة! بل ربَّما قدَّم كثير من النَّاس نفسه على ولده، وافتدى به وإن تيقَّن عطب الولد، كما اتفق ذلك في المفاوز والمخمصة.

هذا كُلَّه في نار وعطب ينقضي ألمه في ساعة واحدة، وربَّما ينتقل بعده إلى الراحة والجَنَّة، فما ظنَّك بألم يبقى أبد الآباد، ويمكث سنين!؟ وإنَّ يوماً عند ربّك منها كألف سنة مِمَّا تعدُّون، ولو رأها أحدنا، وأشرف عليها، لودَّ أن يفتدي ببنيه وصاحبته وأخيه وفصيلته الَّتي تؤويه ومن في الأرض جميعاً ثمَّ ينجيه كلاً إنَّها لظى نزاعة للشوى تدعو من أدبر وتولى وجمع فأوعى.

ومن هنا جاء ما ورد عن النَّبيِّ ﷺ، أنَّه قال لعثمان بن مظعون رضي الله عنه، وقد مات ولده، فاشتدَّ حزنه عليه: «يابن مظعون، إنَّ للجنَّة ثمانية أبواب، وللنَّار سبعة أبواب، أفما يسرُّك أن لا تأتي باباً منها إلاَّ وجدت ابنك إلى جنبه، آخذاً بحجزتك يستشفع لك إلى ربِّكَ، حَتَّى يشفعه الله تعالىٰ؟».

وسيأتي له نظائر كثيرة إن شاء الله.

إنَّكَ تحب بقاء ولدك لينفعك في دُنياك، أو في آخرتك، ولا تريد في الأغلب بقاءه لنفسه، فإنَّ هذا هو المجبول عليه طبع الخلق، ومنفعته لك على تقدير بقائه غير معلومة، بل كثيراً ما يكون المظنون عدمها، **فإنَّ الزَّمان قد صار في آخره**، والشقوة والغفلة قد شملت أكثر الخلائق، وقد عزَّ السعيد، وقلَّ الصالح الحميد، فنفعه

لك ـ بل لنفسه ـ علىٰ تقدير بقائه غير معلوم، وانتفاعه الآن وسلامته من الخطر ونفعه لك قد صار معلوماً، فلا ينبغي أن تترك الأمر المعلوم لأجل الأمر المظنون بل الموهوم، وتأمَّل أكثر الخلف لأكثر السلف، هل تجد منهم نافعاً لأبويه إلاَّ أقلَّهم، أو مستيقظاً إلاَّ أوحديَّهم حَتَّى إذا رأيت واحداً كذلك، فعدَّ ألوفاً بخلافه. وإلحاقك ولدك الواحد بالفرد النادر الفذّ دون الأغلب الكثير، عين الغفلة والغباوة، **فإنَّ النَّاس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم**.

كما ذكره سيِّد الوصيِّين، وترجمان ربِّ العالمين، صلوات الله وسلامه عليه.

مع إنَّ ذلك الفرد الَّذي تريد مثله، إنَّما هو صالح نافع بحسب الظاهر، وما الَّذي يدريك بباطنه وفساد نيَّته وظلمه لنفسه؟! فلعلَّك لو كشفت عن باطنه، ظهر لك أنَّه منطوٍ على معاصي وفضائح، لا ترضاها لنفسك ولا لولدك، وتتمنى أنَّ ولدك لو كان على مثل حالته يموت فإنَّهُ خير له.

هذا كُلَّه إذا كنت تريد أن تجعل ولدك واحداً في العالمين، ووليّاً من الصالحين، فكيف وأنت لا تريده إلاَّ ليرث بيتك، أو بستانك، أو دوابك، وأمثال ذلك من الأُمور الخسيسة الزائلة عمَّا قريب! وتتركه يرث الفردوس الأعلى في جوار أولاد النَّبيِّين والمرسلين، مبعوثاً مع الآمنين الفرحين، مُربّىً إن كان صغيراً في حجر سارَّة أُمّ النَّبيِّين، كما وردت به الأخبار عن سيِّد المرسلين، ما هذا إلاَّ معدود من السفه لو عقلت!.

ولو كان مرادك أن تجعله من العلماء الراسخين والصلحاء

المتَّقين، وتورثه علمك وكتبك وغيرها من أسباب الخير، فاذكر أيضاً أنَّ ذلك كُلَّه لو تمَّ معك، فما وعد الله تعالىٰ من العوض على فقده أعظم من مقصدك، كما ستسمعه إن شاء الله تعالىٰ.

مثل ما رواه الصدوق، عن الإمام الصَّادق عليه السلام: «ولد واحد يقدِّمه الرجل، أفضل من سبعين ولداً يبقون بعده، يدركون القائم عليه السلام».

واعتبر أنَّه لو قيل: أنَّ رجلاً فقيراً معه ولد عليه خلقان الثياب، قد أسكنه في خربة مقفرة ذات آفات كثيرة، وفيها بيوت حيَّات وعقارب وسباع ضارية، وهو معه على خطر عظيم، فاطَّلع عليه رجل حكيم جليل، ذو ثروة وحشمة وخدم وقصور عالية ورتب سامية، فَرَقَّ لهذا الرجل ولولده، فأرسل إليه بعض غلمانه: إنَّ سيِّدي يقول لك: إنِّي قد رحمتك مِمَّا بك في هذه الخربة، وهو خائف عليك وعلى ولدك (من العاهات)، وقد تفضَّلت عليك بهذا القصر، ينزل به ولدك، ويوكِّل به جارية عظيمة من كرائم جواريه تقوم بخدمته إلى أن تقضي أنت أغراضك الَّتي في نفسك، ثمَّ إذا قدمت، وأردت الإقامة أنزلتك معه في القصر، بل في قصر أحسن من قصره.

فقال الرجل الفقير: أنا لا أرضى بذلك، ولا يفارقني ولدي في هذه الخربة، لا لعدم وثوقي بالرجل الباذل، ولا زهداً منِّي في داره وقصره، ولا لأماني على ولدي في هذه الخربة، بل طبعي اقتضى ذلك، وما أريد أن أخالف طبعي.

أفما كنت ـ أيُّها السامع لوصف هذا الرجل ـ تعدَّه من أدنياء

السفهاء وأخساء الأغبياء؟! فلا تقع في خلق لا ترضاه لغيرك، فإنَّ نفسك أعزّ عليك من غيرك.

واعلم أنَّ لسع الأفاعي، وأكل السباع، وغيرهما من آفات الدُّنيا لا نسبة لها إلى أقلَّ محنة من محن الآخرة المكتسبة في الدُّنيا، بل لا نسبة لها إلى إعراض الحق سبحانه، وتوبيخه ساعة واحدة في عرصة القِيَامةِ، أو عرضة واحدة على النَّار مع الخروج منها بسرعة.

فما ظنُّك بتوبيخ يكون ألف عام، أو أضعافه، وبنفحة من عذاب جهنَّم يبقى ألمها ألف عام، ولسعة من حيَّاتها وعقاربها يبقى ألمها أربعين خريفاً! وأيّ نسبة لأعلى قصر في دار الدُّنيا، إلى أدنى مسكن في الجَنَّة! وأيّ مناسبة بين خلقان الثياب في الدُّنيا إلى فاخرها إلى أعلى ما في الدُّنيا، بالإضافة إلى سندس الجَنَّة وإستبرقها، وهلمَّ جرا إلى ما فيها من النعيم المقيم؟!

بل لو تأمَّلت بعين بصيرتك في هذا المثل، وأجلت فيه رؤيتك، علمت أنَّ ذلك الكريم الكبير، بل جميع العقلاء لا يرضون من ذلك الفقير بمجرد تسليم ولده ورضاه بأخذه، بل لا بُدَّ في الحكمة من حمده عليه وشكره، وإظهار الثناء عليه بما هو أهله؛ لأنَّ ذلك هو مقتضىٰ حق النعمة[1].

وعن أبي الدرداء قال: كان لسليمان بن داود ﷺ ابن يحبه حباً شديداً، فمات فحزن عليه حزناً شديداً، فبعث الله ـ تعالىٰ ـ

---

(١) المصدر السابق: ص١٩.

إليه ملكين في هيئة البشر، فقال: «ما أنتما؟ قالا: خصمان، قال: اجلسا بمنزلة الخصوم، فقال: أحدهما: إنِّي زرعت زرعاً فأتى هذا فأفسده، فقال سليمان عليه السلام: ما يقول هذا؟ قال: أصلحك الله إنَّه زرع في الطَّريق، وإنِّي مررت به فنظرت يميناً وشمالاً فإذا الزرع، فركبت قارعة الطَّريق، فكان في ذلك فساد زرعه، فقال سليمان عليه السلام، ما حملك على أن تزرع في الطَّريق، أما علمت أنَّ الطريق سبيل النَّاس، ولا بُدَّ للنَّاس من أن يسلكوا سبيلهم؟ فقال له أحد الملكين: أو ما علمت ـ يا سليمان ـ أنَّ الموت سبيل النَّاس، ولا بُدَّ للنَّاس من أن يسلكوا سبيلهم؟» قال: فكأنَّما كشف عن سليمان عليه السلام الغطاء، ولم يجزع على ولده بعد ذلك[1].

في الرواية: جاء رجل من موالي أبي عبد الله عليه السلام فنظر إليه فقال: مالي أراك حزيناً؟

فقال: كان لي ابن قُرَّة عين فمات.

فتمثَّل عليه السلام:

عـطـيَّـتـه إذَا أعْـطَـىٰ سُـرُورٌ	وَإنْ أخَـذَ الَّـذي أعْـطَـىٰ أثَـابَـا
فَـأيُّ الـنِّـعْـمَـتَـيـنِ أحَـقُّ شُـكْـراً	وَأحْـمَـدُ عِـنْـدَ مُـنْـقَـلَـبٍ إيـابَـا
أنِـعْـمَـتُـهُ الَّـتـي أهْـدَتْ سُـرُوراً	أمِ الأُخْـرَىٰ الَّـتـي أُدِّخَـرَتْ ثَـوَابـا

وقال عليه السلام: «إذا أصابك من هذا شيء فأفِضْ من دموعك فإنَّها تسكن».

---

(١) المصدر السابق: ص١١١.

رابعاً: أن يسلّي نفسه بثواب فقد العزيز:

عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: ولد واحد يقدّمه الرجل أفضل من سبعين، يخلفونه من بعده، كلّهم قد ركب الخيل، وقاتل في سبيل الله.

وعن سهل بن حنيف رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: تزوّجوا فإنّي مكاثر بكم الأمم يوم القيامة، حتّى أنّ السقط ليظلّ محبنطئاً على باب الجنّة، فيقال له: أدخل، يقول: حتّى يدخل أبواي.

والمحبنطئ هو: الممتلئ غيظاً.

وعن النّبي ﷺ، أنّه قال: «يقال للولدان يوم القيامة: أدخلوا الجنّة. فيقولون: يا ربّ، حتّى يدخل آباؤنا، وأمهاتنا. قال: فيأبون. فيقول الله عزّ وجلّ: ما لي أراهم محبنطئين، أدخلوا الجنّة. فيقولون: يا ربّ، آباؤنا. فيقول تعالى: أدخلوا الجنّة أنتم وآباؤكم».

وعن أم مبشر الأنصارية، عن رسول الله ﷺ، أنّه دخل عليها، وهي تطبخ حبّاً، فقال ﷺ: «منْ مات له ثلاثة لم يبلغوا الحنث، كانوا له حجاباً من النّار» فقالت: يا رسول الله، واثنان، فقال لها ﷺ: واثنان، يا أم مبشر[1].

خامساً: أن يتأسّى بالصالحين الّذين صبروا على فقد الأحبّة:

* رُوي: إنّ قوماً كانوا عند الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام،

---

(١) المصدر السابق: ص٣٠.

فاستعجل خادماً بشواء في التنور، فأقبل به مسرعاً، فسقط السفود[1] من يده على ولد علي بن الحسين عليه السلام، فأصاب رأسه فقتله، فوثب علي بن الحسين عليه السلام، فلمّا رأىٰ ابنه ميتاً، قال للغلام: «أنت حرٌّ لوجه الله تعالىٰ، أما إنَّكَ لم تتعمده» ثُمَّ أخذ في جهاز ابنه.

* وروى الصدوق في (الفقيه): إنَّهُ لمَّا مات ذر بن أبي ذرّ ـ رحمه الله ـ وقف [أبو ذرّ] على قبره فمسح القبر بيده، ثمَّ قال: «رحمك الله يا ذر، والله إنَّكَ كنت بي لَبَرّاً، ولقد قُبضت وإنّي عنك لراض، والله ما بي فقدك وما عليَّ من غضاضة، وما لي إلى أحد سوى الله من حاجة، ولولا هول المطلع لسرّني أن أكون مكانك، ولقد شغلني الحزن لك عن الحزن عليك، والله ما بكيت لك، ولكن بكيت عليك، فليت شعري ما قلت، وما قيل لك؟ اللَّهمَّ إنّي قد وهبته ما افترضت عليه من حقّي، فهب له ما افترضت عليه من حقّك، فأنت أحقّ بالجود والكرم منّي».

* عن الأوزاعيّ، قال: حدثنا بعض الحكماء، قال: خرجت وأنا أريد الرباط[2]، حَتَّى إذا كنت بعريش[3] مصر إذا أنا بمظلة، وفيها رجل قد ذهبت عيناه، واسترسلت يداه ورجلاه، وهو يقول: لك الحمد سيِّدي ومولاي، اللَّهمَّ إنِّي أحمدك حمداً يوافي محامد

---

(١) السَّفُود: بفتح السين وضمها، حديدة ذات شعب مُعقَّفة يشوى بها اللحم. «لسان العرب ـ سفد ـ ٣: ص٢١٨».

(٢) الرباط: ملازمة ثغور البلاد استعداداً للعدو. «القاموس المحيط ـ ربط ـ ٢: ص٣٦٠».

(٣) العريش: مدينة بمصر على ساحل البحر الأبيض المتوسط، في حدود مصر على الشام. «معجم البلدان ٤: ص١١٣».

خلقك، كفضلك على سائر خلقك، إذ فضلتني على كثير مِمَّن خلقت تفضيلاً.

فقلت: والله لأسألنَّهُ، أعلمه أو أُلهمه إلهاماً؟ فدنوت منه، وسلَّمت عليه، فردَّ عليَّ السَّلام، فقلت له: رحمك الله، إنِّي أسألك عن شيء، أتخبرني به أم لا؟ فقال: إن كان عندي منه علم أخبرتك به، فقلت: رحمك الله، على أي فضيلة من فضائله تشكره؟ فقال: أوليس ترىٰ ما قد صنع بي؟ قلت: بلىٰ، فقال: والله لو أنَّ الله تبارك وتعالىٰ صبَّ عليَّ ناراً تحرقني، وأمر الجبال فدمَّرتني، وأمر البحار فغرَّقتني، وأمر الأرض فخسفت بي، ما ازددت فيه ـ سبحانه ـ إلاَّ حبّاً، ولا ازددت له إلاَّ شكراً، وإنَّ لي إليك حاجة، أفتقضيها لي؟ قلت: نعم، قل ما تشاء، فقال: بُنيَ لي كان يتعاهدني أوقات صلاتي، ويطعمني عند إفطاري، وقد فقدته منذ أمس، فانظر هل تجده لي؟

قال: فقلت في نفسي: إنَّ في قضاء حاجته لقربة إلى الله عزَّ وجلَّ، فقمت وخرجت في طلبه، حَتَّى إذا صرت بين كثبان الرِّمال، إذاأنا بسبع قد افترس الغلام فأكله، فقلت: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، كيف آتي هذا العبد الصالح بخبر ابنه؟

قال: فأتيته، وسلَّمت عليه، فردَّ عليَّ السَّلام فقلت: رحمك الله، إن سألتك عن شيء تخبرني؟ فقال: إن كان عندي منه علم أخبرتك به، قال، فقلت: أنت أكرم على الله عزَّ وجلَّ وأقرب منزلة، أو نبي لله أيوب ﷺ؟ فقال: بل (نبي الله) أكرم على الله تعالىٰ منِّي، وأعظم عند الله تعالىٰ منزلة منِّي، فقلت له: إنَّه ابتلاه الله تعالىٰ فصبر، حَتَّى استوحش منه من كان يأنس به، وكان عرضاً

لمُرَّار الطَّريق، واعلم أنَّ ابنك الَّذي أخبرتني به، وسألتني أن أطلبه لك افترسه السبع، فأعظم الله أجرك فيه.

فقال: الحمد لله الَّذي لم يجعل في قلبي حسرة من الدُّنيا، ثمَّ شهق شهقة وسقط على وجهه، فجلست ساعة ثمَّ حركته فإذا هو ميت: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، كيف أعمل في أمره؟ ومن يعينني على تغسيله وكفنه وحفر قبره ودفنه؟

فبينما أنا كذلك إذ أنا بركب يريدون الرباط، فأشرت إليهم فأقبلوا نحوي حَتَّى وقفوا عليَّ، وقالوا: من أنت؟ ومن هذا؟ فأخبرتهم بقصتي، فعقلوا رواحلهم، وأعانوني حَتَّى غسَّلناه بماء البحر، وكفَّناه بأثواب كانت معهم، وتقدَّمت فصلَّيت عليه مع الجماعة، ودفنَّاه في مظلته.

وجلست عند قبره آنساً به أقرأ القرآن إلى أن مضىٰ من اللَّيل ساعة، فغفوت غفوة فرأيت صاحبي في أحسن صورة وأجمل زي، في روضة خضراء عليه ثياب خضر قائماً يتلو القرآن، فقلت له: ألست بصاحبي؟ قال: بلىٰ، قلت: فما الَّذي صيَّرك إلى ما أرىٰ؟ فقال: اعلم أنِّي وردت مع الصابرين على الله عزَّ وجلَّ في درجة لم ينالوها إلاَّ بالصَّبر على البلاء، والشكر عند الرخاء، فانتبهت.

* عن معاوية بن قُرَّة، قال: كان أبو طلحة يحبُّ ابنه حبّاً شديداً، فمرض فخافت أُم سليم على أبي طلحة الجزع حين قرب موت الولد، فبعثته إلى النبي ﷺ، فلمَّا خرج أبو طلحة من داره توفي الولد، فسجَّته أُم سليم بثوب، وعزلته في ناحية من البيت، ثمَّ تقدَّمت إلى أهل بيتها، وقالت لهم: لا تخبروا أبا طلحة بشيء.

ثمَّ إنَّها صنعت طعاماً، ثمَّ مسَّت شيئاً من الطيب، فجاء أبو طلحة من عند رسول الله ﷺ فقال: ما فعل ابني؟ فقالت له: هدأت نفسه، ثمَّ قال: هل لنا ما نأكل؟ فقامت فقربت إليه الطعام، ثمَّ تعرضت له فوقع عليها، فلمَّا اطمأنَّ قالت له: يا أبا طلحة أتغضب من وديعة كانت عندنا، فرددناها إلى أهلها؟ فقال: سبحان الله، لا، فقالت: ابنك كان عندنا وديعة فقبضه الله تعالىٰ، فقال أبو طلحة: فأنا أحق بالصبر منك.

ثمَّ قام من مكانه، فاغتسل، وصلَّىٰ ركعتين، ثمَّ انطلق إلى النَّبيّ ﷺ، فأخبره بصنيعها، فقال له رسول الله ﷺ: «فبارك الله لكما في وقعتكما، ثمَّ قال رسول الله ﷺ: الحمد لله الَّذي جعل في أُمَّتي مثل صابرة بني إسرائيل».

* وقال أبان بن تغلب رحمه الله: دخلت على امرأة، وقد نزل بابنها الموت، فقامت إليه فغمَّضته وسجَّته، ثمَّ قالت: يا بني، ما الجزع في ما لا يزول؟ وإنَّما البكاء في ما ينزل بك غداً؟ يا بني، تذوق ما ذاق أبوك، وستذوقه من بعدك أُمّك، وإنَّ أعظم الراحة لهذا الجسد النوم، والنوم أخو الموت، فما عليك إن كنت نائماً على فراشك، أو على غيره، وإنَّ غداً السؤال والجَنَّة والنَّار، فإنْ كنت من أهل الجَنَّة فما ضرَّك الموت، وإنْ كنت من أهل النَّار فما تنفعك الحياة ولو كنت أطول النَّاس عمراً، والله يا بني لولا أنَّ الموت أشرف الأشياء لابن آدم، لما أمات الله نبيه ﷺ، وأبقىٰ عدوّه إبليس لعنه الله».

* وعن بعضهم قال: خرجت أنا وصديق لي إلى البادية، فضللنا الطريق، فإذا نحن بخيمة عن يمين الطريق فقصدنا نحوها

فسلَّمنا، فإذا بامرأة تردُّ علينا السّلام، وقالت: ما أنتم؟ قلنا: ضالون، فأتيناكم فاستأنسنا بكم، فقالت: يا هؤلاء، ولُّوا وجوهكم عنِّي، حَتَّى أقضي من حقكم ما أنتم له أهل، ففعلنا، فألقت لنا مسحاً، وقالت: اجلسوا عليه إلى أن يأتي ابني.

ثمَّ جعلت ترفع طرف الخيمة وتردُّها، إلى أن رفعته مرَّة فقالت: أسأل الله بركة المقبل، أمَّا البعير فبعير ابني، وأمَّا الراكب فليس هو به، قال: فوقف الراكب عليها، وقال: يا أُم عقيل، عظَّم الله أجرك في عقيل ولدك، فقالت: ويحك مات!؟ قال: نعم، قالت: وما سبب موته؟ قال: ازدحمت عليه الإبل فرمت به في البئر فقالت: انزل واقض ذمام القوم، ودفعت إليه كبشاً فذبحه وأصلحه، وقرب إلينا الطعام، فجعلنا نأكل، ونتعجب من صبرها.

فلمَّا فرغنا خرجت إلينا وقالت: يا قوم، هل فيكم منْ يحسن من كتاب الله شيئاً؟ فقلت: نعم، قالت: فاقرأ عليَّ آيات أتعزَّىٰ بها عن ولدي، فقلت: يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴿١٥٧﴾﴾ (سورة البقرة: الآيتان: ١٥٥ ـ ١٥٧). قالت: بالله إنَّها في كتاب الله هكذا؟ قلت: والله إنَّها لفي كتابا لله هكذا، فقالت: السَّلام عليكم، ثمَّ صفَّت قدميها وصلَّت ركعات، ثمَّ قالت: اللَّهمَّ إنِّي قد فعلت ما أمرتني به، فأنجز لي ما وعدتني به، ولو بقي أحدٌ لأحدٍ ـ قال: فقلت في نفسي تقول: لبقي ابني لحاجتي إليه، فقالت ـ: لبقي محمَّد ﷺ لأُمَّته.

فخرجت وأنا أقول: ما رأيت أكمل منها ولا أجزل، ذكرت ربّها بأكمل خصاله وأجمل خلاله. ثمَّ إنَّها لمَّا علمت أنَّ الموت لا مدفع له، ولا محيص عنه، وأنَّ الجزع لا يجدي نفعاً، والبكاء لا يرد هالكاً، رجعت إلى الصَّبر الجميل، واحتسبت ابنها عند الله تعالىٰ ذخيرة نافعة ليوم الفقر والفاقة.

* وعن أبي قدامة الشامي قال: كنت أميراً على الجيش في بعض الغزوات، فدخلت بعض البلدان، ودعوت النَّاس للغزاة، ورغبتهم في الجهاد، وذكرت فضل الشهادة وما لأهلها، ثمَّ تفرق النَّاس وركبت فرسي، وسرت إلى منزلي، فإذا أنا بامرأة من أحسن النَّاس وجهاً تنادي: يا أبا قدامة، فمضيت ولم أجب، فقالت: ما هكذا كان الصالحون، فوقفت، فجاءت ودفعت إليَّ رقعة وخرقة مشدودة، وانصرفت باكية، فنظرت في الرقعة وإذا فيها مكتوب: أنت دعوتنا إلى الجهاد، ورغَّبتنا في الثواب، ولا قدرة لي على ذلك، فقطعت أحسن ما فيَّ، وهما ضفيرتاي، وأنفذتهما إليك لتجعلهم قيد فرسك لعلَّ الله يرى شعري قيد فرسك في سبيله، فيغفر لي.

فلمَّا كان صبيحة القتال، فإذا بغلام بين يدي الصفوف يقاتل حاسراً، فتقدَّمت إليه وقلت: يا غلام، أنت فتى غِرٌّ راجل، ولا آمن أن تجول الخيل فتطأك بأرجلها، فارجع عن موضعك هذا، فقال: أتأمرني بالرجوع، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ (سورة الأنفال: الآية: ١٥)؟ وقرأ الآية إلى آخرها.

فحملته على هجين كان معي، فقال: يا أبا قدامة، أقرضني

ثلاثة أسهم، فقلت: أهذا وقت قرض؟ فما زال يلح عليَّ حَتَّى قلت: بشرط إن منَّ الله عليك بالشهادة أكون في شفاعتك، قال: نعم، فأعطيته ثلاثة أسهم، فوضع سهماً في قوسه ورمىٰ به، فقتل رومياً، ثمَّ رمىٰ بالآخر فقتل رومياً، ثمَّ رمىٰ بالآخر، وقال: السَّلام عليك يا أبا قدامة سلام مودِّعٍ، فجاءه سهم فوقع بين عينيه، فوضع رأسه على قربوس سرجه، فتقدَّمت إليه، وقلت: لا تنسها، فقال: نعم، ولكن لي إليك حاجة، إذا دخلت المدينة فأتِ والدتي، وسلّم خُرجي[1] إليها وأخبرها، فهي الَّتي أعطتك شعرها لتقيد به فرسك، فسلّم عليها، ففي العام الأول أصيبت بوالدي، وفي هذا العام بي، ثمَّ مات، فحفرتُ له، ودفنته.

فلمَّا هممت بالانصراف عن قبره قذفته الأرض، فألقته على ظهرها، فقال أصحابه: غلام غِرٌّ، ولعلَّه خرج بغير إذن أُمِّه، فقلت: إنَّ الأرض لتقبل منْ هو شرّ من هذا، فقمت وصلَّيت ركعتين، ودعوت الله، فسمعت صوتاً يقول: يا أبا قدامة، أترك وليّ الله، فما برحت حَتَّى نزلت عليه طيور فأكلته.

فلمَّا أتيت المدينة ذهبت إلى دار والدته، فلمَّا قرعت الباب خرجت أخته إليَّ، فلمَّا رأتني عادت إلى أُمِّها، وقالت: يا أُماه، هذا أبو قدامة، وليس معه أخي، وقد أُصبنا في العام الأول بأبي، وفي هذا العام بأخي، فخرجت أُمه، فقالت: أمعزياً أم مهنئاً؟ فقلت: ما معنى هذا؟ قالت: إن كان ابني مات فعزّني، وإن كان

---

(١) الخرج: وعاء.

استشهد فهنّئني، فقلت: لا، بل قد مات شهيدا، فقالت: له علامة، فهل رأيتها؟ فقلت: نعم، لم تقبله الأرض، ونزلت الطيور، فأكلت لحمه، وتركت عظامه، فدفنتها، فقالت: الحمد لله.

فسلّمت إليها الخرج، ففتحته وأخرجت منه مسحاً وغلاً من حديد، قالت: إنّه كان إذا جنّه اللّيل لبس هذا المسح، وغَلَّ نفسه بالغلّ وناجى مولاه، وقال في مناجاته: إلٰهي احشرني من حواصل الطيور. فاستجاب الله سبحانه دعاءه رحمه الله.

* وروى البيهقيّ عن أبي العبّاس السراج، قال: مات لبعضهم ابن، فدخلت على أُمّه، فقلت لها: اتقي الله واصبري، فقالت: مصيبتي به أعظم من أن أفسدها بالجزع[1].

سادساً: أن يضع نصب عينيه هذه الكلمات.

روي: أنَّهُ تُوفِّي لمعاذ ولد، فاشتدَّ وجده عليه، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فكتب إليه:

«بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم، من محمَّدٍ رسول الله إلى معاذ، سلام عليك، فإنّي أحمد الله الَّذي لاَ إلَهَ إلاَّ هو.

أمَّا بعد: أعظم الله لك الأجر، وألهمك الصَّبر، ورزقنا وإيَّاك الشكر، فإنَّ أنفسنا (وأهلينا وموالينا) وأولادنا من مواهب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الهنيئة، وعواريه المستودعة، نُمتّع بها إلى أجلٍ معلوم، وتقبض لوقت معدود، ثمَّ افترض علينا الشكر إذا أعطانا، والصَّبر

---

(١) المصدر السابق: ص٦١.

إذا ابتلانا، وكان ابنك من مواهب الله الهنيئة، وعواريه المستودعة، متَّعك الله به في غبطة وسرور، وقبضه منك بأجر كثير، الصَّلاة والرَّحمة والهدىٰ إن صبرت واحتسبت، فلا تجمعن عليك مصيبتين، فيحبط لك أجرك، وتندم على ما فاتك، فلو قدمت على ثواب مصيبتك، علمت أنَّ المصيبة قصرت في جنب الله عن الثواب، فتُنجز من الله موعوده، وليذهب أسفك على ما هو نازل بك، فكأن قد، والسَّلام».

* عن إسحاق بن عمَّار، قال: إنَّ أبا عبد الله جعفر بن محمَّد عليه السلام كتب إلى عبد الله بن الحسن، حين حمل هو وأهل بيته، يعزِّيه عمَّا صار إليه:

بسم اللَّه الرَّحمٰن الرَّحيم

إلى الخلف الصالح والذريَّة الطَّيِّبة ـ من ولد أخيه وابن عمه ـ.

أمَّا بعد: فلئن كنت قد تفردت ـ أنت وأهل بيتك مِمَّن حمل معك ـ بما أصابكم، فما انفردت بالحزن والغيظ والكآبة وأليم وجع القلب دوني، ولقد نالني من ذلك من الجزع والقلق وحرّ المصيبة مثل ما نالك، ولكن رجعت إلى ما أمر الله عزَّ وجلَّ به المتقين من الصَّبر وحسن العزاء، حين يقول لنبيّه ﷺ: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ (سورة الطور: الآية: ٤٨).

وحين يقول: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ (سورة القلم: الآية: ٤٨).

وحين يقول لنبيّه ﷺ، حين مُثِّل بحمزة: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟

﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ (سورة النحل: الآية: ١٢٠).

فصبر رسول الله ﷺ ولم يعاقب.

وحين يقول: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (سورة طه: الآية: ١٣٢).

وحين يقول: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ (سورة البقرة: الآيتان: ١٥٦ ـ ١٥٧).

وحين يقول: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (سورة الزمر: الآية: ١٠).

وحين يقول عن لقمان لابنه: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ (سورة لقمان: الآية: ١٧).

وحين يقول عن موسى عليه السلام: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (سورة الأعراف: الآية: ١٢٨).

وحين يقول: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ (سورة العصر: الآية: ٣).

وحين يقول: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ (سورة البقرة: الآية: ١٥٥).

وحين يقول: ﴿وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰبِرَٰتِ﴾ (سورة الأحزاب: الآية: ٣٥).

وحين يقول: ﴿وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ (سورة يونس: الآية: ١٠٩) وأمثال ذلك من القرآن كثير.

واعلم ـ أيّ عمّ وابن عمّ ـ إنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لم يبالِ بضرّ الدُّنيا لوليِّه ساعة قط، ولا شيء أحبُّ إليه من الضرّ والجهد واللأواء[1] مع الصَّبر، وأنَّه ـ تبارك وتعالىٰ ـ لم يبالِ بنعيم الدُّنيا لعدوه ساعة واحدة قط.

ولولا ذلك ما كان أعداؤه يقتلون أولياءه ويخيفونهم ويمنعونهم، وأعداؤه آمنون مطمئنون عالون ظاهرون.

ولولا ذلك لما قُتل زكريا ويحيى بن زكريا ظلماً وعدواناً في بغيّ من البغايا.

ولولا ذلك لما قُتل جدّك عليّ بن أبي طالب عليه السلام ـ لمَّا قام بأمر الله جلَّ وعزَّ ـ ظلماً، وعمّك الحسين بن فاطمة ـ صلّىٰ الله عليهما ـ اضطهاداً وعدواناً.

ولولا ذلك لما قال الله عزَّ وجلَّ في كتابه: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ (سورة الزخرف: الآية: ٣٣).

ولولا ذلك لما قال في كتابه: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ (سورة المؤمنون: الآيتان: ٥٥ ـ ٥٦).

---

(١) اللأواء: الشدّة.

ولولا ذلك لما جاء في الحديث: «لولا أن يحزن المؤمن لجعلت للكافر عصابة من حديد، فلا يصدع رأسه أبداً».

ولولا ذلك لما جاء في الحديث: «أنَّ الدُّنيا لا تساوي عند الله عزَّ وجلَّ جناح بعوضة».

ولولا ذلك ما سقىٰ كافراً منها شربة ماء.

ولولا ذلك لما جاء في الحديث: «لو أنَّ مؤمناً على قلة جبل لابتعث الله له كافراً أو منافقاً يؤذيه».

ولولا ذلك لما جاء في الحديث أنَّهُ: «إذا أحبَّ الله قوماً ـ أو أحبَّ عبداً ـ صبَّ عليه البلاء صبّاً، فلا يخرج من غمّ إلاَّ وقع في غمّ».

ولولا ذلك لما جاء في الحديث: «ما من جرعتين أحبُّ إلى الله تعالىٰ أن يجرعهما عبده المؤمن في الدُّنيا، من جرعة غيظ كظم عليها، وجرعة حزن عند مصيبة صبر عليها بحسن عزاء واحتساب».

ولولا ذلك لما كان أصحاب رسول الله ﷺ يدعون على من ظلمهم بطول العمر، وصحة البدن، وكثرة المال والولد.

ولولا ذلك ما بلغنا: أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا خصَّ رجلاً بالترحُّم عليه والاستغفار استشهد.

فعليكم ـ يا عمّ وابن عمّ وبني عمومتي وإخوتي ـ بالصَّبر والرِّضا والتسليم والتفويض إلى الله عزَّ وجلَّ، والرِّضا والصَّبر على قضائه، والتمسك بطاعته، والنزول عند أمره.

أفرغ الله علينا وعليكم الصَّبر، وختم لنا ولكم بالسعادة، وأنقذنا وإيَّاكم من كُلِّ هلكة بحوله وقُوَّتهِ، إنَّهُ سميع قريب.

وصلَّىٰ الله على صفوته من خلقه، مُحَمَّد النَّبيّ وأهل بيته صلوات الله وسلامه وبركاته ورحماته عليهم أجمعين»[١].

في الرواية: جاء فقير إلى الإمام الحسن عليه السلام يشكو حاله ولم يكن عنده عليه السلام في ذلك اليوم شيء فعزَّ عليه الأمر واستحىٰ من ردِّه فقال عليه السلام له: «إنِّي أدلُّك على شيء يحصل لك منه الخير.

فقال الفقير: يابن رسول الله ما هو؟

قال عليه السلام: اذهب إلى الخليفة فإنَّ ابنته قد توفِّيت وانقطع عليها وما سمع من أحد تعزية بليغة فعزِّه بهذه الكلمات يحصل لك منه الخير.

قال: يابن رسول الله حفِّظني إيَّاها.

قال عليه السلام: قل له، الحمد لله الَّذي سترك بجلوسك على قبرها ولم يهتكها بجلوسها على قبرك.

وحفظ الفقير هذه الكلمات وجاء إلى الخليفة فعزَّاه بها، فذهب عنه حزنه وأمر له بجائزة، وقال له: أكلامك هذا؟

قال: لا، وإنَّما هو كلام الإمام الحسن عليه السلام.

فقال الخليفة: صدقت فإنَّه معدن الكلام الفصيح وأمر له بجائزة أخرىٰ»[٢].

---

(١) المصدر السابق: ١٠٨.

(٢) شواهد المبلغين: ص٣٩١.

كيفية مواجهة بلاء المشركين:

يتحدث القرآن الكريم عن الابتلاء من زاوية استنهاض المؤمنين على الاستقامة والثبات في مقابل أذى المشركين ويطلب منهم الصَّبر إزاء هذا البلاء فيقول: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (سورة آل عمران: الآية: ١٨٦).

وقد وصف القرآن جماعة من المؤمنين وقفت كالجبل الصامد أمام مخاوف المشركين فقال: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (سورة آل عمران: الآية: ١٧٢).

ويقول عن أصحاب الأحزاب: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ (سورة الأحزاب: الآية: ٢٢).

كما يأمر القرآن الكريم الرَّسول الأكرم ﷺ بالصَّبر على أذى المشركين والمنافقين لأنَّ الصَّبر هو السَّلام الأكبر في مواجهة الأعداء، فيقول الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ (سورة المزمّل: الآية: ١٠).

ذلك إنَّ عاقبة الصَّبر على الأذى في سبيل الله هي النصر والفوز في الدُّنيا والآخرة.

الترويح عن النَّفس:

يحتاج الإنسان المُبتلى إلى أن يروِّح عن نفسه، فإنَّ الترويح

عن النَّفس يبعث عن النشاط والقُوَّة والانطلاقة في الحياة بثقة وأمل كبيرين.

ففي الحديث الشَّريف: «النشرة ـ أي الشفاء ـ في عشرة أشياء: المشي، والركوب والارتماس في الماء، والنظر إلى الخضرة، والأكل، والشرب، والنظرة إلى المرأة الحسناء، والجماع، والسواك، ومحادثة الرِّجال»[1].

إنَّ التحرك في عمل ما يساعد على تغيُّر المشكلة بينما الجمود يغذِّيٰ البلاء، لذلك لا بُدَّ من نشاط جدي يساعد على إزالة المحن النفسيَّة والجسديَّة، ومن ذلك: الرياضة، والمشي، والسباحة والتعرض للشمس، والمشي في الطبيعة، والاسترخاء، ومسامرة الأصدقاء، إلى ما هنالك، وللتوسعة في هذا الموضوع يراجع كتابنا «النظام الصحي».

---

(١) الخصال: ص٤٤٢.

الخاتمة

فَقُلْ لِجَدِيدِ الثَّوبِ لاَ بُدَّ مِنْ بِلىً

وَقُلْ لاجْتماعِ الشَّملِ: لاَ بُدَّ مِنْ شَتّ

وقال عليه السلام:

تُؤَمِّل فِي الدُّنْيَا طَوِيْلاً، وَلاَ تَدْرِيْ

إذا جَنَّ لَيْلٌ هَلْ تَعِيشُ إِلٰى الفَجْرِ

فَكَمْ مِنْ صَحِيحٍ ماتَ مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ

وَكَمْ مِنْ عَلِيْلٍ، عَاشَ دَهْراً إِلٰى دَهْرِ

وَكَمْ مِنْ فَتًىٰ يُمْسِيْ وَيُصْبِحُ آمِناً

وَقَدْ نُسِجَتْ أَكْفَانُهُ وَهْوَ لاَ يَدْرِي

وينسب إليه عليه السلام:

يَا طَالِبَ الصَّفْوِ فِي الدُّنيا بِلا كَدَرِ

طَلَبْتَ مَعْدُوْمَةً، فَايأسْ مِنَ الظَّفَرِ

وَاْعْلَمْ بِأَنَّكَ مَا عُمِّرْتَ مُمْتَحَنٌ

بِالخَيْرِ وَالشَّرِّ وَالمَيْسُورِ وَالعَسِرِ

أَنَّىٰ تَنَالُ بِهَا نَفْعاً بِلا ضَرَرِ

وَأَنَّهَا خُلِقَتْ لِلنَّفْعِ وَالضَّرَرِ

فِي الجُبْنِ عارٌ وَفِي الإِقْدامِ مَكْرُمَةٌ

وَمَنْ يَفِرُّ فَلَنْ يَنْجُو مِنَ الْقَدَرِ

ويُنْسَب إليه عليه السلام:

فَمَا نُوَبُ الحَوادِثِ بَاقِيَاتٍ
وَلاَ البُؤْسَىٰ تَدُوْمُ وَلاَ النَّعِيْمُ
كَمَا يَمْضِي سُرُوْرُكَ وَهْوَ جَمٌّ
كَذٰلِكَ مَا يَسُوؤُكَ لا يَدُوْمُ
فَلاَ تَهْلِكْ عَلَىٰ مَا فَاتَ وَجْداً
وَلاَ تُفْرِدْكَ بِالأَسَفِ الهُمُوْمُ

وقال عليه السلام:

عَجَباً لِلزَّمانِ فِي حَالَتَيْهِ
وَبَلاءٍ ذَهَبْتُ مِنْهُ إِلَيْهِ
رُبَّ يَوْمٍ بَكَيْتُ مِنْهُ فَلَمَّا
صِرْتُ فِي غَيْرِهِ بَكَيْتُ عَلَيْهِ

يقول عليه السلام في الثبات أمام تصرُّفات الدَّهْرِ:

هِيَ حَالاَنِ شِدَّةٌ وَرَخَاءُ
وَسِجَالاَنِ نِعْمَةٌ وَبَلاءُ
وَالفَتَىٰ الحَاذِقُ الأَرِيبُ إِذَا مَا
خَانَهُ الدَّهْرُ، لَمْ يَخُنْهُ عَزَاءُ
إِنْ أَلَمَّتْ مُلِمَّةٌ فَهِي فَإِنِّي
فِي المُلِمَّاتِ صَخْرَةٌ صَمَّاءُ

عَالِمٌ بِالبَلاَءِ عِلْماً بِأَنْ لَيْـ

ـسَ يَدُوْمُ النَّعِيمُ وَالأَرْزَاءُ

وقال عليه السلام:

إِنِّي أَقُوْلُ لِنَفْسِيْ، وَهْيَ ضَيِّقَةٌ

وَقَدْ أَنَاخَ عَلَيْهَا الدَّهْرُ بِالعَجَبِ

صَبْراً عَلَىٰ شِدَّةِ الأَيَّامِ، إِنَّ لَهَا

عُقْبَىٰ، وَمَا الصَّبْرُ إِلاَّ عِنْدَ ذِيْ الحَسَبِ

سَيَفْتَحُ اللَّهُ عن قُرْبٍ بِنَافِعَةٍ

فِيْهَا لِمِثْلِكَ رَاحَاتٌ مِنَ التَّعَبِ

وقال عليه السلام في الصّبر:

فَإِنْ تَسْأَلَنِّيْ، كَيْفَ أَنْتَ؟ فَإِنَّنِيْ

صَبُورٌ عَلَىٰ رَيْبِ الزَّمَانِ، صَلِيْبُ

حَرِيْصٌ عَلَىٰ أَنْ لاَ يُرَىٰ بِي كَآبَةٌ

فَيَشْمُتُ عَادٍ، أَوْيُسَاءَ حَبِيْبُ

وقال عليه السلام:

خَلِيْلَيَّ لاَ وَاللَّهِ مَا مِنْ مُلِمَّةٍ

تَدُوْمُ عَلَىٰ حَيٍّ، وَإِنْ هِيَ جَلَّتِ

فَإِنْ نَزَلَتْ يَوْماً فَلاَ تَخْضَعَنْ لَهَا

وَلاَ تُكْثِرِ الشَّكْوَىٰ إِذَا النَّعْلُ زَلَّتِ

فَكَمْ مِنْ كَرِيمٍ يُبْتَلىٰ بِنَوائِبٍ

فَصَابَرَهَا، حَتَّىٰ مَضَتْ وَاضْمَحَلَّتِ

وقالَ عليه السلام:

إِذَا النَّائِبَاتُ بَلَغْنَ المَدَىٰ

وَكَادَتْ تَذُوبُ لَهُنَّ المُهَجْ

وَحَلَّ البَلاءُ وَبَانَ العَزَاءُ

فَعِنْدَ التَّنَاهِي يَكُونُ الفَرَجْ

ودخل عليه الأشْعَثُ بن قيس بصفين وهو قائم يُصلِّي فقال له، يا أمير المؤمنين أَدُؤُوبٌ بِاللَّيلِ وَدُؤُوبٌ بالنَّهار، فانْفَتَلَ من صلاتِهِ وهو يقول:

إِصْبِرْ عَلىٰ تَعَبِ الأَدْلاَجِ وَالسَّهَرِ

وَبِالرَّوَاحِ عَلىٰ الحَاجَاتِ وَالبَكَرِ

لاَ تَضْجَرَنَّ وَلا يُعْجِزْكَ مَطْلَبُهَا

فَالنُّجْحُ يُتْلَفُ بَيْنَ العَجْزِ وَالضَّجَرِ

إِنِّي وَجَدْتُ، وَفِي الأَيَّامِ تَجْرِبَةٌ

لِلصَّبرِ عَاقِبَةً، مَحْمُودَةَ الأَثَرِ

وَقَلَّ مَنْ جَدَّ فِي أَمْرٍ يُطَالِبُهُ

وَٱسْتَصْحَبَ الصَّبْرَ، إِلاَّ فَازَ بِالظَّفَرِ

وقال عليه السلام:

لَـئِـنْ سَـاءَنِـيْ دَهْـرٌ لَـقَـدْ سَـرَّنِـي دَهْـرُ

وَإِنْ مَـسَّـنِي عُـسْرٌ فَـقَـدْ مَـسَّـنِي يُـسْرُ

لِـكُـلٍّ مِـنَ الأَيَّـامِ عِـنْـدِيَ عَـادَةٌ

فَـإِنْ سَـاءَنِيْ، صَـبْرٌ وَإِنْ سَرَّنِيْ. شُـكْـر

وقال عليه السلام:

لاَ تَـجْـزَعَـنَّ إِذَا نَـابَـتْـكَ نَـائِـبَـةٌ

وَٱصْـبِرْ فـصـبرك عِـنْـدَ الـضِّيْقِ مُـتَّـسَـعُ

إِنَّ الـكَـرِيـمَ إِذَا نَـابَـتْـهُ نَـائِـبَـةٌ

لَمْ يَـبْـدُ مِـنْـهُ عَـلَىٰ عِـلاَّتِـهِ الْهَـلَـعُ

وقال عليه السلام:

إِذَا مَـا عَـرَىٰ خَـطْـبٌ مِنَ الـدَّهْـرِ فَٱصْـطَـبِرْ

فَـإِنَّ الـلَّيَالِيْ بِـالْخُـطُـوْبِ حَـوَامِـلُ

وَكُـلُّ الَّـذِي يَـأْتِـي بِـهِ الـدَّهْـرُ زَائِـلٌ

سَرِيْـعـاً، فَـلا تَجْـزَعْ لمـا هُـوَ زَائِـلُ

وينسب إليه بعضهم بمعنى هذه الأبيات:

أَلاَ فَـٱصْـبِـر عَـلـىٰ الـحَـدَثِ الـجَـلِـيْـلِ

وَدَاوِجَـواكَ بِـالـصَّـبْرِ الجَـمِـيْـلِ

وَلاَ تَـجْـزَعْ وَإِنْ أَعْـسَـرَتْ يَـوْمـاً

فَـقَـدْ أَيْـسَرَتْ فِي دَهْـرٍ طَـوِيْـلِ

وَلاَ تَيْأَسَ فَإِنَّ اليَأْسَ كُفْرٌ

لَعَلَّ اللَّهُ يُغْنِي مِنْ قَلِيْلِ

وَلاَ تَظْنُنْ بِرَبِّكَ ظَنَّ سُوْءٍ

فَإِنَّ اللَّهَ أَوْلَى بِالجَمِيْلِ

رَأَيْتُ العُسْرَ يَتْبَعُهُ يَسَارٌ

وَقَوْلُ اللَّهِ أَصْدَقُ كُلِّ قِيْلِ

فَلَوْ أَنَّ العُقُوْلَ تَجُرُّ رِزْقاً

لَكَانَ الرِّزْقُ عِنْدَ ذَوِي العُقُولِ

وَكَمْ مِنْ مُؤْمِنٍ قَدْ جَاعَ يَوْماً

سَيَرْوَى مِنْ رَحِيْقٍ سَلْسَبِيْلِ

وقال عليه السلام :

هَوِّنِ الأَمْرَ تَعِشْ فِي رَاحَةٍ

فَلَمَّا هَوَّنْتَ إِلاَّ سَيَهُونُ

لَيْسَ أَمْرُ المَرْءِ سَهْلاً كُلُّهُ

إِنَّمَا الأَمْرُ سُهُوْلٌ وَحُزُوْنُ

تَطْلُبُ الرَّاحَةَ فِي دَارِ العَنَا

خَابَ مَنْ يَطْلُبُ شَيْئاً لاَ يَكُونُ

وقال عليه السلام :

وَكَمْ لِلَّهِ مِنْ لُطْفٍ خَفِيٍّ
يَدِقُّ خَفَاءُ عَنْ فَهْمِ الذَّكِيِّ
وَكَمْ يُسْرٍ أَتَىٰ مِن بَعْدِ عُسْرٍ
فَفَرَّجَ كَرْبَةَ القَلْبِ الشَّجِيِّ
وَكَمْ أَمْرٍ تُسَاءُ بِهِ صَبَاحاً
وَتَأْتِيكَ المَسَرَّةُ بِالعَشِيِّ

بَلَوْتُ النَّاسَ قَرْناً بَعْدَ قَرْنٍ
فَلَمْ أَرَ مِثْلَ مُخْتَالٍ بِمَالِ
وَلَمْ أَرَ فِي الخُطُوبِ أَشَدَّ هَوْلاً
وَأَصْعَبَ مِنْ مُعَادَاةِ الرِّجَالِ
وَذُقْتُ مَرَارَةَ الأَشْيَاءِ طُرّاً
فَمَا طَعْمٌ أَمَرُّ مِنَ السُّؤَالِ

* * *

وكان الفراغ من تأليف الكتاب في شهر ربيع الثاني من سنة ألف وأربعمائة وثلاث وعشرين هجرية في بلدة عديسه من قُرى جبل عامل

بقلم

حسين بن نجيب محمد الموسوي العاملي

أهم مصادر الكتاب

الأربعون حديثاً ت: السيد الخميني ط: دار التعارف
الإلهيات ت: الشيخ حسن مكي ط: الدار الإسلامية
الأمثل ت: الشيخ ناصر مكارم الشيرازي ط: مؤسسة البعثة
تزكية النفس ت: السيد كاظم الحائري ط: مؤسسة الفقيه
التشريع الإسلامي ت: السيد محمد تقي المدرسي
التمحيص ت: ابن شُعبة الحراني ط: مؤسسة الأعلمي
جنود العقل والجهل ت: السيد الخميني ط: مؤسسة الأعلمي
دار السلام ت: المُحدّث النوري ط: دار البلاغة
روائع الحكم في اشعار الإمام علي (ع) ت: عبود الخزرجي
سفينة البحار ت: الشيخ عباس القمي ط: دار الاسوة
الصبر في الإسلام ت: طلال طرفة ط: مؤسسة الغدير
العدل الإلهي ت: الشيخ مرتضى مطهري ط: الدار الإسلامية
عروض البلاء على الأولياء ت: السيد محمد هادي الخراساني
فن الترويح عن النفس ت: السيد هادي المدرسي ط: مؤسسة الفكر الإسلامي
في رحاب القرآن ت: الشيخ محمد مهدي الآصفي
كيف تكسب الثروة والقيادة والنجاح ت: دايل كارنجي ط: دار الحياة
كيف تتمتع بحياتك وتعيش سعيداً ت: السيد هادي المدرسي ط: مؤسسة العلوم
لكي لا تموت باليأس ت: محمد صالح المدرسي

محاضرات في الدين والاجتماع ت: الشيخ مرتضى مطهري ط: الدار الإسلامية
المحنة ت: السيد محمد باقر الصدر ط: دار التعارف
المسلم بين المحنة والابتلاء ت: السيد حسين الصدر
مسكن الفؤاد ت: الشهيد الثاني ط: دار إحياء تراث أهل البيت
المشكلة الاجتماعية المعاصرة ت: السيد نوري طعمة ط: الدار الإسلامية
مواهب الرحمان في تفسير القرآن ت: السيد عبد الأعلى السبزواري
ميزان الحكمة ت: الشيخ محمدي الري شهري ط: الدار الإسلامية
نفحات القرآن ت: الشيخ ناصر الشيرازي
نور الثقلين ت: الشيخ عبد علي الحويزي ط: مؤسسة اسماعيليان

الفهرس

صدر للمؤلف

١ ـ زيارة الإمام الحسين عليه السلام اليومية

٢ ـ في رحاب الإمام المهدي عليه السلام

٣ ـ النور المبين في فضل الصلاة على محمد وآله الطاهرين

٤ ـ الروح بين العلم والعقيدة

٥ ـ خدمة الناس في سيرة أهل البيت عليهم السلام

٦ ـ المنهج العبادي للأنبياء والأوصياء والعرفاء

٧ ـ ضياء المؤمنين

٨ ـ حياة السيد المسيح عليه السلام

٩ ـ النظام الصحي بين الطب الإسلامي والطب الطبيعي

١٠ ـ جمال السالكين السيد عبد الأعلى السبزواري قدّس سرّه

تُطلب الكتب من المؤلف: جنوب لبنان ـ عديسة

تلفون : ٠٣/٦٤٩١٣٦

٠١/٢٧٩٥٨١

محتوى الكتاب

يعالج هذا الكتاب أهم موضوع في حياة الإنسان ألا وهو «الإبتلاء الدنيوي».

ففي المقدمة يستعرض النصوص التي تذكر بأن الإبتلاء هدف الخلق وسنة الحياة.

ثم يبحث في فصول ست عن معنى البلاء، وأنواعه، وشروطه، وفلسفته، وكيفية مواجهته بالصبر والرضا والشكر.

ثم يبين كيفية مواجهة بلاء الفقر، والمرض، وإيذاء الزوج والجار والناس، وموت الأحبة وخصوصاً منهم الأولاد.

وفي الخاتمة يستعرض نماذج من الأشعار التي قالها الإمام علي عليه السلام في الإبتلاء.





هاتف
ص.ب : ٢٥/٢٨٦ - الغبيري - بيروت - لبنان
URL :htty://www.daralhadi.com
E-MAIL : daralhadi@daralhadi.com